

دوستويفسكي

الزوج الأبدي

المركز الثقافي العربي

دوستويفسكي

الزوج الأبدي

ترجمة: محمد ماشتي



دوستويفسكي

الزوج الأبدي

الكتاب

الزوج الأبدي

تأليف

دوستويفسكي

ترجمة

محمد ماشتي

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 224

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-693-6

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

I

فيلتشانينوف

حلّ الصيف، وبقي فيلتشانينوف في بطرسبرغ، بعكس كلّ ما كان منتظراً، ولم يتحقَّق السفر إلى جنوب روسيا الذي خطّط له، أما في ما يخصّ قضيته المعروضة أمام المحاكم، فإنه لا يرى لها نهاية. لقد أخذت هذه القضية، التي كان موضوعها التنازع حول ملكية إحدى قطع الأرض، أبعاداً مقلقة. إذ ظلَّت المسألة منذ ثلاثة أشهر، تبدو بسيطة نسبياً، ثم انهار كل شيء فجأة. «على العموم، الأمور تسير دائماً من سيئ إلى أسوأ»، جملة كثيراً ما ردّدها وهو يخاطب نفسه. كان له محامٍ ماهر ومشهور وأتعابه مرتفعة، ولم يكن هو يحمل همّاً للمصاريف، لكن قلة الصبر، ونوعاً من الارتياب والقلق، دفعاه إلى التدخل شخصياً في قضيته: حرّر مذكرات، رمى بها محاميه في سلة المهملات، من دون أي تردّد. زِدْ على ذلك أنه طاف على جميع الإدارات، واستقى المعلومات دون توقف، لكن من المرجّح أن عمله هذا لم يزِدْ الأشياء إلا تأخراً، وفي الأخير جهر المحامي بشكواه من ذلك التصرف، ودعاه بإلحاح للسفر إلى البادية، لكنه لم يستطع البتّ في هذا

الأمر. إنّ غبار بطرسبرغ، وحرارتها الخانقة، ولياليها البيضاء، كلها أشياء تضاعف التوتر والقلق، غير أنّ هذا لم يخلق لديه متعة العيش بالمدينة. كان يقطن بمكان ما قرب المسرح الكبير، في شقة اكتراها منذ مدة قصيرة، لكنها لم تكن لتوافقه. «لا شيء يسير وفْق هواه»، وسواسه المرضي يتعاظم يوماً بعد يوم، وعلى أي حال فقد صار على هذا النهج منذ مدّة.

لقد عاش الرجل حياة غنية ومكثفة، فهو يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، أو تسعة وثلاثين عاماً، ممّا يبعده كثيراً عن سنّ الشباب. لقد داهمته «الشيخوخة على حين غرة»، مثلما كان يقول. لقد فهم من تلقاء نفسه، بأنّ ما جعله يبدو كهلاً ليس هو عدد السنين وكيفية إنفاقها. وإذا كان قد أحسّ بالوهن المبكر، فإن الأمر جواني أكثر منه براني. إذ يمكن القول بالنظر إليه، إنه لا يزال شاباً، وولداً قويّ البنية، وذا شعر كثيف، خالٍ من أدنى شعرة شيب، ولحيته الشقراء تكاد تتدلى إلى نصف صدره. ويبدو حين يتمّ النظر إليه، فظّاً شيئاً ما وثقيل الظِّل، لكننا نكتشف عند الاقتراب منه، شخصاً ذا تربية عالية جداً، شخصاً جُبل على عادات المجتمع الراقي.

لقد حافظ على عاداته الأرستقراطية وعلى أناقته، رغم الفظاظة التي اكتسبها في ما بعد. إلى الآن لا يزال يمتلك تلك الثقة في النفس، التي تصل حدّ الوقاحة، وهي ميزة لم يُدرك كُنهها، رغم نباهته وموهبته غير المحدودة. وجهه المستقيم الذي كان يتميز إلى عهد قريب بلونه الوردي، يثير انتباه النساء حتى إنه إذا رآه أحدهم، صرخ مبهوراً «يا له من فتى جميل وكأنه حليب

ممزوج بالدم»، ورغم ذلك فهذا الفتى الجميل ظلّ مصاباً بالوسواس المرضي. منذ عشر سنوات خلت، كانت عيناه الواسعتان الزرقاوان، عينين صافيتين مرحتين عليهما مسحة من اللامبالاة، تسلب كلّ مَن التقت نظرته بنظرته. والآن، وقد شارف على الأربعين، انطفأت الطيبة والصفاء بشكل كلي تقريباً، من تينك العينين اللتين حاصرتهما تجاعيد خفيفة، وصارتا على عكس ذلك تعبّران عن استخفاف رجل منهك لا أخلاق له، وعن المكر والسخرية اللاذعة في بعض الأحيان، إضافة إلى شيء لم يكن من قبل: مسحة جديدة من الحزن والألم، حزن غير مبرَّر وممزوج باللامبالاة، ولكنه عميق. كان هذا يظهر عليه خاصة، عندما يكون وحيداً. والشيء الغريب هو أنّ هذا الرجل الذي كان بالكاد فرحاً منذ سنتين، وكثير الهرج، وطائشاً يحكي قصصاً مسلية، أصبح الآن محبّاً للعزلة أكثر من أي شيء آخر. لقد تخلى بمحض إرادته، عن العديد من الصداقات التي كان بإمكانه الحفاظ عليها، رغم ضائقته المالية. وقد ساعده على ذلك، غروره: إذ حالَ حذره القلق وغروره دونه ودون معارفه القدامى، وانزلق شيئاً فشيئاً نحو العزلة التامة. وبدلاً من أن تخفّ آلامه، أخذت شكلاً جديداً وخاصّاً: لقد أضيفت أسباب أخرى إلى تلك التي كانت تقلقه.

وصل به الأمر في بعض الأحيان، إلى التألم لأسباب غير منتظرة، وهي أسباب لم يكن لها بالنسبة إليه وجود من قبل، «أسباب عليا» بالنسبة إلى تلك التي هيمنت عليه إلى حدود الساعة: «هذا إذا ما افترضنا أن ذلك هو التعبير الصحيح، وأن هناك بالفعل

أسباباً عليا وأخرى سفلى»، ذلك ما ظلّ يجول في خاطره.

نعم، لقد وصل إلى هذا الحدّ، فهو يصارع الآن أسباباً عليا، لم يكن ليقف عندها في السابق. ما كان يقصده بالأسباب العليا في قرارة نفسه، هي تلك التي كان من المستحيل عليه أن يسخر منها في داخله، لكن الأمر بين الناس كان مغايراً. فقد كان يعرف أنه من الغد، وعند أول فرصة تُتاح له، سيتخلى عن «الأسباب العليا» رغم العزم المكتوم والورع لضميره، وسيكون أول مَن سيسخر من هذا الموقف. مع عدم الإقرار بذلك طبعاً.

كانت الأمور بالفعل تمرُّ على ذلك النحو، باستثناء كونه استطاع انتزاع استقلاله الفكري من تلك «الأسباب السفلى»، التي كانت قد هيمنت عليه حتى ذلك الحين. زِدْ على ذلك أنه ولمرّات عديدة، غادر سريره وهو يحسّ بالخجل من الأفكار والأحاسيس، التي راودته أثناء أرقه (إذ كان يعاني من أرق دائم، خلال الأيام الأخيرة). فقد لاحظ منذ مدة غير وجيزة، بأنه أصبح يترك نفسه عُرضة للهواجس والارتياب، سواء أتعلق الأمر بالأشياء المهمة أم بالتافهة، لكنه قرر أن يقلِّص من تصديقه لنفسه. ورغم ذلك، تبرز فجأة أحداث يصعب عليه نفي وقوعها. ففي الأيام الأخيرة، تتغير في الليل أفكاره وأحاسيسه، إلى درجة تصبح منافية لكلِّ ما هو عادي، وهي غالباً لا تشبه في شيء، تلك التي تكون قد داهمته في النهار. صدمه الأمر بشكل كبير، ممّا جعله يزور طبيباً مشهوراً يعرفه حقّ المعرفة، وبطبيعة الحال حدثه بنبرة لا تخلو من السخرية. هكذا علم من الطبيب أنّ التحولات، وحتى ازدواجية

الأفكار التي تحدث أثناء الأرق، ما هي إلا ظاهرة عند الأشخاص الذين «يفكِّرون ويحسّون بقوة»، وأن قناعات حياة بكاملها تتحول فجأة، تحت التأثير السلبي لليل والنهار. ويحدث أن نتخذ أحياناً قرارات مصيرية دون سبب واضح - ولكلّ شيء حدّ بطبيعة الحال - وإذا حدث أخيراً أن أحسَّ المريض بانفصام حادّ ومؤلم في الشخصية، فهذا مؤشِّر عن مرض حقيقي، وعليه في هذه الحالة أن يتصرف دون تأخير، ومن الأفضل أن يغيِّر نمط العيش ونظام الأكل، والأكثر من ذلك السفر، وسيكون شرب دواء مسهِّل ولا شك، أكثر فعالية.

لم يرغب فيلتشانينوف في سماع المزيد، لقد أصبحت مسألته واضحة الآن: إنه مريض «هذا إذن، كل ما يتضمنه ذلك الهوس الذي أرجعه إلى أشياء عليا: مرض لا غير»، قال في قرار نفسه بمرارة، لكنه لم يذعن لهذا الإقرار.

وما هو إلا وقت وجيز، حتى أضحى ما يحسّ به ليلاً، يحس به بالنهار أيضاً، لكن بحدّة أكثر في النهار، حيث تنتابه نشوة ماكرة وساخرة، عوض الحنو المليء بالأسى الذي ظلّ ينتابه من قبل. هكذا أصبح يرى أحداثاً من حياته الماضية تبرز فجأة بذاكرته، بشكل متواتر وغريب. كان يشكو منذ زمان من فقدان الذاكرة، فقد نسي سحنات الناس الذين كان يعرفهم جيداً، والذين كان يصدمهم هذا الموقف عند لقائهم به، كما يحدث أن ينسى مضمون كتاب سبق أن قرأه، لكن رغم ذلك، ها هي أحداث تنتمي إلى فترة قديمة، أحداث منسية منذ عشر أو خمس عشرة سنة، تنبعث فجأة

في مخيلته بدقّة متناهية، وبحيوية تجعله يعيشها من جديد، رغم فقدانه لذاكرته. بعض هذه الأحداث كان غارقاً في النسيان، حتى إن مجرّد تذكّره أصبح بالنسبة إليه معجزة. كل هذا كان لا شيء بالنسبة إليه، إذ يمكنه أن يحدث لأي شخص عادي، لكن المهم هو أن هذه الأحداث كانت تظهر له من زاوية جديدة وغير متوقعة، زاوية لم يكن يفكر فيها أبداً، لماذا هذا الحدث أو ذاك من حياته يظهر وكأنه جريمة؟

لم يكن ليهتمّ لو كان ذلك صادراً عن فكره فقط، لأنه يعرف جيداً الطابع السوداوي والمرضيّ لهذا الفكر، وبالتالي فإنه لا يولي أي أهمية لقراراته، لكن هذه الأشياء كان لها وقعٌ عميق، حيث وصل به الأمر إلى السخط على نفسه، وإلى الانفجار تقريباً ببكاء باطني. ماذا كان سيقول منذ عامين، لو أن أحدهم تنبأ بأنه سيبكي في يوم ما؟ هل كان سيصدّقه؟ ما كان يتذكره ليس الأحاسيس وإنما الأشياء التي كانت تثير امتعاضه، كان يتذكر فشله في ولوج عالم المجتمع الراقي، والإهانات التي كان يتعرّض لها، كان يتذكر مثلاً «افتراءات مدبِّري المكائد»، التي بسببها أغلقت منازل علية القوم في وجهه، أو كيف تعرّض في الماضي، وفي وقت وجيز، للتجريح أمام الملأ دون أن يفرض مبارزة بالسيف من أجل ردّ الاعتبار، كيف تعرض للهجاء اللاذع أمام مجموعة من الحسناوات، دون أن يستطيع الرد، أكثر من ذلك بات يتذكر ديوناً لم يستطع تسديدها، صحيح أنها كانت غير ذات أهمية، لكن عدم دفعها يعتبر مسّاً بشرفه، أما دائنيه الذين لم يعُد يراهم، فهو لا يكفّ الآن عن

الحديث عنهم بالسوء. يتذكر أنه أضاع بشكل بليد ثروتين مهمتين، لكن عمّا قريب سيأتي الدور على الذكريات واللحظات «العليا».

وفجأة، ومن عمق نسيانه المطلق، قفز وجه ذلك الموظف العجوز الطيب المضحك، ذي الشعر الأشيب والذي سخر منه أمام الجميع، من باب التبجُّح فقط ومن أجل جعل الكلمة المضحكة التي أطلقها تكتسي شهرة، وتصبح شائعة التداول. لقد نسي تلك الحكاية إلى درجة أنه لم يعُد يتذكر اسم ذلك العجوز الطيب، ورغم ذلك فإن المشهد العجيب ما زال يتراءى له بجميع تفاصيله. يتذكر أن العجوز دافع عن شرف ابنته المتقدمة في السن، التي كانت تعيش معه تحت سقف واحد، والتي أطلقت بشأنها إشاعات مغرضة في جميع أنحاء المدينة. سيطر على العجوز غضبٌ شديد، وأمسك رأسه بين يديه، وفجأة أجهش بالبكاء أمام الجميع، مما ترك أثراً لدى الحاضرين. وفي الأخير، سقوا العجوز من الشمبانيا حتى الثمالة في شبه مزاح، ممّا أضحك الجميع. والآن، عندما يتذكر فيلتشانينوف ذلك العجوز وهو ينتحب، دون سبب معقول، ورأسه بين يديه كطفل، يبدو له أنه لن يستطيع نسيان ذلك المشهد أبداً. والشيء الغريب هو أن هذه الحكاية التي كانت تضحكه في الماضي، أصبحت اليوم تخلق لديه انطباعاً عكسياً، خصوصاً في تفاصيلها، وبالذات وجه العجوز المدفون بين اليدين.

يتذكر أيضاً كيف أنه افترى، على سبيل المزاح فقط، على تلك المرأة الشريفة زوجة المعلم، وكيف أن هذا الأمر تناهى إلى علم زوجها. لقد غادر فيلتشانينوف تلك المدينة الصغيرة بعد مدة

وجيزة، دون أن يعرف أي منحى اتخذته الأشياء، لكنه بدأ الآن وبشكل مباغت، يتمثل نهايتها، والله وحده يعلم إلى أين كان سيقوده خياله، لو لم تخطر بباله فجأة، ذكرى حديثة شيئاً ما، ذكرى تلك الفتاة الشابة المنتمية إلى عائلة بورجوازية، فتاة لم تَرُقْ له أبداً، بل أكثر من ذلك فهو يخجل من معرفتها حيث أنجب منها، دون أن يعرف كيف، طفلاً سرعان ما تركه وأمه، دون أن يودِّعهما (نظراً إلى ضيق الوقت)، وغادر بطرسبرغ. فيما بعد، وخلال سنة بكاملها، حاول أن يبحث عن تلك الفتاة الشابة، لكن دون جدوى. كانت ذكريات من هذا القبيل تتمثَّل في ذهنه، وتلد كل واحدة منها العشرات.

لقد قلنا سابقاً إن كبرياءه أخذ شكلاً فريداً جداً. فقد تأتيه بالفعل، لحظات نادرة ينسى أثناءها كبرياءه ويتنقل بين الإدارات من دون عربة وبهندام مهمل، وحتى إذا حدث ونظر إليه أحد معارفه القدامى بازدراء، أو تظاهر بعدم معرفته، فإن ذلك لا يضيره في شيء. كان هذا يحدث نادراً، إنها لحظات عابرة سرعان ما يطويها النسيان. وعموماً بدأ كبرياؤه يفقد التأثر شيئاً فشيئاً، بالأشياء التي كانت تؤلمه، وأصبح يهتم بالشيء الوحيد الذي يشغل فكره بشكل مستمر. «نعم، فكَّر بسخرية، (كان من عادته أن يسخر من نفسه كلما فكر بها)، لا شك أن هناك ممّن يحاول أن يسعدني باستحضار دموع الندم، وهذه الذكريات الملعونة. فليكن. وماذا بعد؟ إنها مجرد طلقات في الفراغ. جميل أن نذرف دموع الندم، لكن ألست متأكداً من أنه بسنواتي الأربعين، أربعين سنة من الحياة

الغبية، لا أتوفر على ذرة من القدرة على الاختيار؟ ألست متأكداً من أنني مثلاً، سأعاود الكرة إذا تعرضت للإغراءات نفسها والظروف نفسها، وأنه إذا وجدت فائدة في ذلك سأعود لبثّ إشاعات بأن زوجة المعلم قبلت مني بعض الهدايا بفرح، وسيكون هذا أمراً مشيناً أكثر من المرة الأولى، لأنه يحدث للمرة الثانية. وإذا ما حدث وعاد ذلك الأمير الصغير، وحيد أمه الذي كسرت ساقه بطلقة مسدس، ليستفزني من جديد، فإني سأهينه أنا أيضاً، وسأهدي له ساقاً خشبية أخرى.

كل هذا الرجوع إلى الماضي مجرد طلقات في الهواء. ما جدوى هذا التذكر إذا كنت غير قادر على التحرر من نفسي؟» ليس هناك مدرسة للتشويه، ولا أرجل للكسر، لكن مجرد التفكير في أن هذه الأحداث يمكن أن تتكرر، يعرِّضه للدمار في بعض الأحيان. فعلاً إنه من المستحيل أن يبقى الإنسان عرضة للذكريات الأليمة، وأنه من الأحسن الخلود للراحة والتفرغ.

هذا ما كان يفعله فيلتشانينوف: كان على استعداد للتنزه أثناء فترات الاستراحة، لكن العيش في بطرسبرغ أصبح بالنسبة إليه، متعباً بشكل كبير. وكثيراً ما كانت تحضره رغبة طارئة في ترك كل شيء، الدعوى القضائية وما بقي معها، والذهاب في الحال إلى مكان ما، أي مكان، أي مكان بالقرم. وبعد ساعة على ذلك، كان يسخر من مشروعه ذاك: «ليس هناك سفر يمكن أن يشفيني من هذه الأفكار المضنية، لن أهرب منها رغم ظهورها المفاجئ، إذا كانت لدي ذرة من الشرف. إذ لماذا سأهرب منها؟».

«نعم لماذا الهروب؟ واصل تفلسفه المرير. هذا مكان مغبر، خانق، كل شيء وسخ بهذا المنزل. زد على ذلك أنَّ التيه بين تلك الإدارات، التي أضيع وقتي بها عند رجال الأعمال، ثمة انشغالات تبعث على التوتر والقلق، ثمة هموم حقيرة، كل هؤلاء الناس الباقين هنا، كل هذه الوجوه التي نلتقيها صباح مساء تعكس نوعاً من الصفاقة التي تنمّ عن جهل وبساطة، تعكس كل الجبن الذي يلفّ نفوسهم الضعيفة. ويمكن القول بكل جدية، هنا جنة المهووسين. هنا كل شيء واضح وصريح، لا شي يستحق الإخفاء كما تفعل نساؤنا في البادية، وفي مناطق المياه المعدنية، وفي الخارج، كل شيء هنا يستحق التفكير التام، ولو من أجل وضوحه وبساطته، لن أغادر هذا المكان، سأموت هنا، لكن لن أرحل».

II

الرجل ذو القبعة

حدث ذلك بتاريخ الثالث من تموز/ يوليو. حرارة مفرطة، لا تحتمل. كان يوماً حافلاً بالمشاغل بالنسبة إلى فيلتشانينوف. في ذلك اليوم كان عليه القيام بالعديد من الأعمال. زيارة مستشار الدولة، وهي شخصية ذات نفوذ كبير، عليه أن يزوره في منزله الريفي البعيد، فالرجل يمكن أن يكون ذا نفع كبير بالنسبة إليه.

في المساء، حوالي الساعة السادسة، ومن أجل تناول العشاء، دخل مطعماً رديء المظهر بشارع نيفسكي، قرب جسر «البوليس». جلس في زاويته المفضلة، بطاولته المعهودة، وطلب عشاء دون نبيذ، وهو ما لم يكلِّفه سوى روبل واحد. وكان يعتبر ذلك تضحية معقولة بالنظر إلى وضعه المادي الحرج. لقد كانت شهيته قوية، حتى إنه التهم كل شيء وكأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام. رغم ذلك، فقد كان يتعجب من إقباله على طعام فظيع كهذا. «هذا تصرف مرضي»، همس لنفسه عندما لاحظ شراهته، لكنه هذه المرة، جلس إلى طاولته وهو معكر المزاج، حيث رمى بقبعته فوقها بعصبية، واتكأ على مرفقيه حالماً. أي حركة من طرف

الزبون في الطاولة المجاورة، أو عدم فهم من طرف النادل، كان سيخلق لديه ردّ فعل عنيف، كأي عسكري بسيط، وكان سيخلق ضجة بسبب ذلك، هذا رغم كونه معروفاً بهدوئه ولطفه. لما قدم له الحساء ما إن تناول الملعقة الأولى حتى رمى بها فجأة فوق الطاولة، وقفز من كرسيه. في هذه اللحظة بالذات، فهم سبب غمّه الدائم، هذا القلق الغريب الذي يعذّبه منذ عدة أيام، الله وحده يعلم كيف ولماذا يطوقه هذا الكرب بشدة لا متناهية، وبلا هوادة: ها قد فهم فجأة السبب، إنه يراه كما يرى أصابع يده الخمسة.

«إنها القبعة، همس بإلهام، إنها تلك القبعة الملعونة ذات الثوب المجعّد البشع، إنها سبب كل شيء». وبدأ في التفكير، كلما تمعَّن في التفكير، كلما زاد قلقه، وأظلمت الدنيا في وجهه، وأصبح «الحدث» في نظره أكثر غرابة.

ما حدث هو كالآتي:

منذ أسبوعين - هو لا يتذكر في الحقيقة متى بالضبط، لكن الحدث وقع بالفعل - التقى بالشارع ولأول مرة، بزاوية شارعي بودياتشيسكايا ومسيتشانيسكايا رجلاً بقماش رقيق مجعَّد فوق القبعة، كان رجلاً عادياً لا يتميز بأي شيء عن الآخرين، مرَّ بسرعة، لكن أثناء مروره ألقى نظرة مباشرة على فيلتشانينوف، نظرة أثارت انتباه هذا الأخير، وشعر على الفور أنه يعرف هذا الوجه، أكيد أنه التقاه في مكان ما.

«لا يهم... ألم يسبق لي أن تعرضت لهذه المواقف من قبل؟ ... الآلاف من الوجوه... أنا لا يمكنني تذكرها جميعها».

بعد خطوات، نسي ذلك اللقاء رغم الانطباع الذي تركه لديه، وقد لازمه ذلك الإحساس طوال النهار، على شاكلة غضب دون سبب واضح. والآن، وبعد أسبوعين، ما زال يتذكر الأمر بشكل جلي. يتذكر أيضاً أنه لم يستطع فهم ذلك الغضب، حتى أنه لم يستطع التفكير في الربط بين مزاجه العكر طوال المساء، ولقاءه الصباحي، لكن الرجل حرص على أن لا يطويه النسيان: في الغد، وجد نفسه أمام فيلتشانينوف بشارع نفينسكي، وكما في المرة الأولى رماه بنظرة غريبة، وكعلامة على الاحتقار بصق فيلتشانينوف فوق الأرض، وهي حركة جعلته في الآن نفسه يشعر بالاندهاش، فقال محدِّثاً نفسه:

«هناك بعض الوجوه التي توحي لك بالتقزُّز من غير أي سبب».

«لا شك في ذلك، لقد سبق لي أن التقيت به في مكان ما»، همس بعد نصف ساعة من ذلك اللقاء.

ومن جديد، كان مزاجه خلال تلك الأمسية بكاملها جد متقلب، زدْ على ذلك أنّ نومه كان مضطرباً، لم يخطر بباله أن الرجل الذي يرتدي ثياب الحداد، قد يكون سبب كآبته تلك، مع أنه ظلّ يتذكره باستمرار. حتى إنه كان ناقماً على نفسه من ترك هذه التفاهات تشغل حيزاً كبيراً من ذكرياته. كان سيحسّ بإهانة شديدة لو فكر في اعتبارها سبباً في معاناته. بعد يومين التقاه من جديد، وسط الناس على رصيف «النيفا». وكان هذه المرة بإمكانه أن يقسم بأن الرجل الذي يرتدي لباس الحداد قد تعرَّف عليه، وأن الحشد

حال بينهما، لقد اعتقد بالفعل أن الرجل حاول مصافحته، ومن الممكن أن يكون قد ناداه باسمه، أما الباقي فإن فيلتشانينوف لم يسمعه. «من هو هذا الوغد؟ لماذا لم يتَّجه نحوي، إذا كانت له بالفعل معرفة بي؟»، فكر فيلتشانينوف بغضب، وهو يستقلّ العربة التي ستأخذه إلى دير سمولني. بعد نصف ساعة، كان له نقاش عاصف مع محاميه، لكن في المساء وأثناء الليل، عاوده رعب غريب. «هل أنا مصاب بمرض الصفراء؟»، قال متسائلاً وهو ينظر إلى المرآة بقلق شديد.

مرت أربعة أيام دون أن يلتقي «أحداً»، ودون أن يظهر لذلك «الوغد» أي أثر. ورغم كل شيء فهو لا يستطيع نسيان ذلك الرجل الذي يرتدي ثوب الحداد.

«تُرى ما الذي يجعلني أهتم بأمره؟ أكيد، لقد قَدِم هو أيضاً إلى بطرسبرغ لقضاء غرض ما، لكن لماذا يرتدي ثوب الحداد؟ لا شك أنه تعرَّف عليّ... أمّا أنا فلا، إنما لماذا يرتدي هؤلاء الناس تلك القبعات ذات الثوب المجعّد؟ هذا لا يناسبهم. أعتقد بأني إذا ما رأيته من قرب، فإني سأتعرف عليه».

وكان شيء ما يتململ داخل ذاكرته، كتلك الكلمة التي نعرفها جيداً، ونحاول تذكّرها، تلك الكلمة التي ندرك أننا نعرفها، وندرك معناها، وندور حولها، لكننا لا نستطيع الإمساك بها. «منذ... منذ مدة... بمكان ما... كانت هنا... اللعنة، أمن أجل هذا الوغد أعرِّض نفسي لكل هذا العذاب؟ لكلّ هذا الذل؟». كان في حالة من الغضب الشديد.

لكن في الليل، عندما تذكر ذلك الغضب، أحسّ بنوع من الغموض، وكأن أحدهم قد ضبطه وهو يرتكب خطأ ما. جعله ذلك يحسّ بالقلق والتعجب: «لا شك أن هناك سبباً ما وراء غضبي هذا... غضب فارغ... غضب بسبب ذكرى بسيطة».

في الغدْ، داهمه غضب أشدّ، لكن تهيأ له هذه المرة بأن هناك سبباً ما، وأنه كان محقاً بشكل مطلق. «هذه وقاحة ليس لها مثيل...». إنه اللقاء الرابع، لقد ظهر الرجل ذو قبعة الحداد، وكأنه خرج من تحت الأرض.

هذه هي الحكاية:

أخيراً، ها قد تمكَّن فيلتشانينوف من لقاء مستشار الدولة بالشارع، ذلك الرجل المهم الذي كان يبحث عنه منذ مدة. ذلك الموظف، الذي ليست له به معرفة كبيرة، كان يتفاداه عنوة، رغم ذلك كان فيلتشانينوف سعيداً بالعثور عليه، بالمشي إلى جانبه، بتفحُّصه بعمق إضافة إلى القيام بمجهود جبار واستنفار جميع كنوزه في التعبير اللبق لاستدراج الكهل الماكر للحديث في صلب الموضوع وانتزاع تلك الكلمة الثمينة، لكن الماكر الخبيث كان يجيب بدعابات أو بصمت مطبق. وفي اللحظة الحاسمة والحرجة، التقت نظرات فيلتشانينوف الرجل ذا قبعة الحداد، في الشارع المقابل. لقد توقف، وركَّز نظراته عليهما، تتبعهما، إنه من دون شك يسخر منهما، لقد كان ذلك واضحاً.

- عليه اللعنة، صرخ فيلتشانينوف بغضب، حين ودَّع في الحين تشينوفنيك، مُرجِعاً سبب فشله إلى ظهور ذلك «الوقح»، ألا

فليذهب إلى الجحيم. هل يتجسَّس عليّ؟ إنه يتعقبني، هذا واضح، من استأجره لذلك الغرض؟... يا إلهي... إنه يسخر مني... لو كان لدي عكاز... سأشتري عكازاً... أنا لن أتحمل هذا الشخص، يجب أن أعرف مَن هو.

لقد مرت أربعة أيام على ذلك اللقاء، ها هو فيلتشانينوف جالس في المطعم كما في السابق، يستشيط غضباً.

رغم كبريائه فإنه كان مضطرّاً للإقرار بذلك، لقد كان مجبَراً على الاعتراف بأنّ مزاجه، وتلك الكآبة الغريبة التي تخنقه، لم يكن لهما سبب غير ذلك الرجل ذي قبعة الحداد، ولا شيء آخر.

«أنا سوداوي المزاج، هذا أكيد، أنا دائماً أرى الذبابة فيلاً، هذا صحيح أيضاً، لكن ألن يكون من الأهون عليّ أن أعتبر ذلك مجرد تهيؤات؟ إذا كان وغد كهذا قادراً على إرباك رجل مثلي، فعلي إذن...».

اللقاء الخامس الذي جعل فيلتشانينوف يستشيط غضباً، لم يعُد بالفعل سوى ذبابة، لقد مرّ الرجل من هنا دون أن يحدق في فيلتشانينوف، بل تظاهر بعدم معرفته: كان يمشي وعيناه إلى الأرض، راغباً في عدم إثارة الانتباه إليه، فتوجّه نحوه فيلتشانينوف وهو يصرخ: «قل لي أيها الرجل ذو قبعة الحداد، أتهرب الآن؟... توقف إذن... من أنت؟».

لم يكن لتلك المناداة وذلك السؤال أي معنى، لكن فيلتشانينوف لم ينتبه لذلك إلا بعد أن صرخ. استدار الرجل نحوه، توقف لبرهة من الزمن، وحاول أن ينطق بكلمة، ابتسم، بدت عليه

حيرة بالغة، ثم ابتعد فجأة دون أن ينظر إلى الخلف. تتبَّعه فيلتشانينوف باندهاش كبير. وقال في نفسه: «هل أنا الذي يلاحقه، أم هو؟».

عندما انتهى فيلتشانينوف من تناول العشاء، هرع إلى المنزل الصيفي لتشينوفيك. لم يجده. قيل له إنه لم يعُد منذ الصباح، وإنه سيعود دون شك بعد ثلاث أو أربع ساعات، لأنه بقي في المدينة للاحتفال بعيد ميلاد أحد أصدقاءه. أحسَّ فيلتشانينوف بنوع من الاستفزاز إلى درجة أنّ أول ما فكَّر فيه هو اللحاق به عند ذلك الصديق، لكنه وهو في الطريق، رأى أن ذلك سيكون بلا جدوى، فغادر عربته في منتصف الطريق، وراح نحو منزله القريب من المسرح الكبير. لقد كان يرغب في المشي. كان في حاجة إلى نوم عميق كي يهدئ أعصابه ويقاوم الأرق، لهذا عليه أن يتعب. ولأن الطريق كان طويلاً، وصل المنزل عند الساعة العاشرة والنصف، وأحس فعلاً بتعب شديد.

الشقة التي اكتراها في شهر آذار/ مارس، والتي لم يجدها إلا بعد عناء شديد، كان لا يكفّ عن لعنها وانتقادها، وهو يعتذر لنفسه مكرراً: «هذه ليست سوى خيمة... كل هذا بسبب تلك "القضية اللعينة" التي تستبقيني مؤقتاً ببطرسبرغ»، هذه الشقة لم تكن أبداً مزعجة أو غير ملائمة، كما يدّعي. فالمدخل، وهذا صحيح، كان شيئاً ما مظلماً ومتّسخاً، لكنها كانت تحتوي على غرفتين مضاءتين، وذات سقف عالٍ، تفصل بينهما غرفة صغيرة شبه مظلمة. إحدى الغرفتين لها إطلالة على الشارع، والأخرى تطلّ

على الممر، ومحاذية لحجرة النوم، لكن فيلتشانينوف خصَّصها لكتبه وملفاته؛ لقد استعمل الثانية للنوم متخذاً الكنبة سريراً. أثاث الغرفتين يخلق إحساساً بالراحة، رغم علامات القِدم البادية عليه. هنا وهناك توجد بعض الأشياء كشهادة على أيام العزّ، تماثيل برونزية صغيرة الحجم، زرابي أصيلة من بوخارى، لوحتان على قدر من الجمال، لكن كلّ ذلك كان مغبراً ومبعثراً منذ رحيل بلادجيا، الفتاة الشابة التي كانت تشتغل خادمة عند فيلتشانينوف، وقد غادرته فجأة لتعود إلى والديها بنوفركود. شابة تخدم أعزب يحاول أن يحافظ على مظهره كإنسان مهذب ومحترم، هذا الوضع الغريب يجعله يخجل من نفسه رغم كونه مرتاحاً لخدمات بلادجيا. كانت بداية اشتغالها عنده في فصل الربيع، حين هاجرت العائلة التي كانت تخدمها البلد. ففي فترة وجيزة، أدخلت نوعاً من النظام على حياته، لكنها غادرته وقرَّر فيلتشانينوف ألّا يشغِّل امرأة أخرى. أما بالنسبة إلى الخدم فهو لا يحبهم، زِدْ على ذلك أنه لا يرى ضرورة لذلك، ما دام مقامه هنا لن يدوم طويلاً. هكذا قرر أن تقوم مارفا، أخت حارسة العمارة، بتنظيف البيت وترتيبه، فهو يترك لها المفتاح، لكنها تتقاضى أجرها دون أن تقوم بالمطلوب، بل من المحتمل أن تسرق، كل هذا لا يهم، إنه يشعر بالراحة لوجوده في المنزل لوحده، لكن أعصابه تتوتر في بعض الأحيان، ويحسّ بساعات من الانزعاج، أمام هذه «الأوساخ»، بل يحدث كثيراً أن يدخل المنزل، ويتجه نحو غرفته باشمئزاز تام.

لكن هذا المساء، ومباشرة بعد التخلص من ثيابه، استلقى

فوق السرير مصمِّماً على عدم التفكير في أي شيء ومهما كان الثمن، إذ قرر الخلود إلى النوم. غريب، فما إن وضع رأسه على الوسادة، حتى داهمه نوم عميق، منذ شهر لم يعِشْ مثل هذا الحدث، لقد نام تقريباً ثلاث ساعات، لكن بشكل مضطرب، عاش أحلاماً غريبة كتلك التي تحدث تحت تأثير الحمى. يتعلق الأمر بجريمة من الممكن أن يكون قد اقترفها، حيث تتهمه مجموعة من الناس بصوت واحد، وهم يدخلون منزله بشكل متواصل، لقد كان هناك حشد يدخل من الباب المشرع عن آخره، دون توقف، لكن اهتمامه كان منصبّاً كليّاً على شخص غريب سبق له أن تعرف عليه بشكل حميمي، شخصية ماتت، وها هي تدخل منزله بشكل مباغت، ولعل المقلق هو أن فيلتشانينوف لم يعُد يتذكر ذلك الشخص، فقد نسي اسمه ويعرف فقط أنه أحبّه كثيراً، ويظهر أن الحشد ينتظر الكلمة الفصل من هذه الشخصية بالذات، الكلمة التي سوف تتَّهم أو تبرِّئ فيلتشانينوف. كان التشويق عاماً، لكن الرجل ظلّ جالساً، صامداً، رافضاً الكلام. ضجيج لا ينتهي، هيجان متصاعد، وفجأة، ضرب فيلتشانينوف ذلك الرجل الذي يصرّ على الصمت، وبعد ذلك أحسّ براحة غريبة، لكن غضبه الشديد دفعه إلى مواصلة ضرب الرجل دون توقف، وتمادى وهو مدفوع بنشوة الغضب في ضربه دون حساب، لقد كان يريد تحطيم كل شيء، كل شيء. لكن حدث فجأة شيء جديد، الجميع أطلق صرخة رعب قوية، واتجهوا نحو الباب، وفي الوقت نفسه رنّ الجرس ثلاث مرات بشكل قوي، وكأنه سيقتلع من مكانه، استيقظ

فيلتشانينوف، وقفز من سريره، واتجه نحو الباب. مؤكَّد أنّ رنات الجرس حقيقية وليست حلماً، وأنّ أحدهم يوجد خلف الباب، ويريد الدخول. «من غير الطبيعي أن يكون هذا الرنين الواضح والملموس خدعة».

رنين الجرس لم يكن حلماً، تلقى ذلك باندهاش كبير. فتح الباب، وخرج لبسطة الدرج، ثم ألقى نظرة. بالقطع ليس هناك أحد. حبل الجرس لم يتحرّك. انتابه الاندهاش، لكنه اقتنع بأن الأمر مجرد حلم، وعاد إلى حجرته. أشعل شمعة، ثم تذكر أنه اكتفى بدفع الباب، ولم يغلقه لا بالمفتاح، ولا بالمزلاج. يحدث كثيراً أن يقترف مثل هذه الأخطاء، دون أن يعيرها أدنى اهتمام. لقد نبهته بلادجيا مراراً لذلك. عاد إلى الردهة، وفتح مرة أخرى الباب، ألقى نظرة نحو الخارج، ثم أغلقه بالمزلاج، مع إغفال استعمال المفتاح. في هذه اللحظة، دقّت الساعة الثانية والنصف، لقد نام ثلاثة ساعات. أزعجه ذلك الحلم إلى درجة لم يستطِع العودة إلى فراشه، حيث قرَّر أن يتمشى بالغرفة لمدة نصف ساعة، «الوقت الكافي لتدخين سيجارة». ارتدى ملابسه بشكل ارتجالي، ثم اقترب من النافدة، رفع الستار وشمسية الشباك البيضاء. لقد طلع النهار. ليالي بطرسبرغ الصيفية المضيئة كانت دائماً تثير أعصابه، وتزيد من تفاقم أرقه. لهذا كان يستعمل ستائر سميكة تحجب الضوء بشكل كلّي، خصوصاً إذا أغلقت بإحكام.

دخل الضوء الحجرة، لكن فيلتشانينوف ترك الشمعة فوق الطاولة، وشرع يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً، وترك نفسه عُرضة

لإحساس رهيب ومتعب. الانطباع الذي تركه ذلك الحلم لم يفارقه. التفكير في كونه كان قادراً على رفع يده في وجه ذلك الرجل الغريب وضربه، جعله يحسّ بألم عميق.

«لكن هذا الرجل لا وجود له البتة، وكل هذه القصة المؤلمة مجرّد حلم»، وكما لو أن هذه النقطة مركز جميع الهموم، بدأ يعتقد أنه «رجل مريض». كان دائماً يجد صعوبة في الاعتراف بأنه بدأ يُصاب بالشيخوخة والوهن، زِدْ على ذلك أنه كان يبالغ في الإحساس بالألم، حتى يتسنى له التهكم على نفسه، فقال في نفسه وهو يتمشى في حجرته:

- إنها الشيخوخة. نعم أنا أشيخ بشكل مرعب، أفقد الذاكرة، أرى أشباحاً، أحلم بأجراس تُقرع... اللعنة أعرف هذه الكوابيس... إنها أعراض حمى... أدرك جيداً أن «قصة» قبعة الحداد قد تكون مجرد حلم. أكيد، كنت على حقّ بالأمس، أنا، أنا الذي كنت ألاحقه وليس هو. لقد جعلت منه وحشاً أخافني، وأسرعتُ للاختباء تحت الطاولة. لماذا نعتته بالوغد؟ قد يكون رجلاً صالحاً. صحيح أنّ وجهه لا يبعث على الارتياح، لكنه ليس قبيحاً. كان يرتدي ملابس عادية كأيّ شخص عادي، لكن نظرته... ها قد عدت إلى التفكير فيه من جديد... اللعنة، لماذا أهتم بنظرته؟ ألا يمكنني العيش دون التفكير في هذا الوغد، الذي يستحق الشنق؟

ضمن هذه الأفكار التي تداهم عقله، واحدة فقط تؤلمه. لقد تسرب إلى عقله أنّ الرجل ذا قبعة الحداد، كان من أصدقائه

الحميمين، والآن عند لقائهما كان الرجل يسخر منه لأنه على معرفة بأسراره، ويلاحظ أنه الآن شخص مهزوم.

اقترب من النافذة كي يفتحها ويستنشق الهواء المسائي، وفجأة ارتعش: يبدو أنه أمام شيء مدهش. لم يستطع فتح النافذة بالكامل، فتسلل بسرعة، ثم اختبأ. هناك على الرصيف المقفر، وبالضبط أمام المنزل، كان الرجل ذو القبعة واقفاً ينظر في اتجاه النافذة، لا شكّ أنه لم ينتبه إلى وجوده. إنه يتفحص المنزل بفضول كبير، وهو يفكر في أمر ما. يبدو أنه يتردد: رفع يده نحو جبهته، وتلمَّسها بأصبعه، ثم حسم أمره، ألقى نظرة خاطفة حوله، ثم قطع الشارع بسرعة، ها هو يقترب من الباب، الباب الصغير الذي يبقى مفتوحاً حتى الثالثة صباحاً. «إنّه يتجه نحوي»، فكر فيلتشانينوف، وتوجّه بسرعة نحو الباب، ثم توقف منتظراً، وهو يضع يده اليمنى المرتعشة على المزلاج، مركِّزاً كل انتباهه على الخطوات القادمة من السلم. كان قلبه يخفق بسرعة، إلى درجة أنه خاف ألّا يسمع قدوم الغريب المتسلِّل، فعلاً إنه لم يعُد يسمع شيئاً، لكنه كان يحسّ بكلّ شيء بكثافة مضاعفة. وكأنّ حلمه امتزج بالواقع. لقد كان بطبعه شجاعاً يحبّ تحدّي الصِّحاب ويحتقرها، حتى وإن لم يظهر ذلك للآخرين، فإنه يفعله من أجل نفسه. الرجل المهووس، المتألم، تحوّل كلياً، أصبح رجلاً آخر. ضحك صامت ومزعج هزّ صدره بقوة. خلف الباب الموصد، هناك حركات الغريب. «آه، ها هو يصعد. لقد وصل، إنه ينحني ليسترق السمع. يتنفس، يتسلل بسرعة... آه، ها قد أمسك المقبض، يجذبه، يحاول، يتمنى لو

كان مفتوحاً. . . يعرف إذن أنني أنسى إغلاقه أحياناً. . . يجذبه من جديد، هل يعتقد أنّ القفل سينكسر بهذه السهولة؟ مع الأسف. . . ستذهب دون الحصول على شيء. . . لسوء حظك ستذهب خالي الوفاض».

بالفعل، كل شيء كان كما توقعه فيلتشانينوف، هناك شخص وراء الباب، يحاول كسر القفل، وجذب المقبض دون ضجيج. «أكيد أن وراء ذلك هدفاً ما»، لكن فيلتشانينوف كان مصمِّماً على معرفة كلمة السر، كان ينتظر اللحظة بفارغ الصبر، كان يتحرّق شوقاً لإزالة المزلاج بشكل مفاجئ، وفتح الباب على مصراعيه، ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام فزاعته تلك، ليقول بهدوء: «ماذا تفعل هنا، أيها السيد المحترم».

وهذا هو ما حدث، إذ إنه عندما اختار الوقت المناسب، أزال المزلاج، وفتح الباب، وكاد أن يصطدم بالرجل ذي قبعة الحداد.

III

بافيل بافيلوفيتش تروسوتسكي

تسمَّر الآخر في مكانه. بقيا واقفين وجهاً لوجه يتبادلان النظرات، استغرق ذلك بضع دقائق، وفجأة تعرّف فيلتشانينوف على ضيفه، وفهم في اللحظة نفسها أنّ الآخر تعرَّف عليه أيضاً، ظهر ذلك في بريق عينيه، وبدت علامة استرخاء على وجهه مع ابتسامة لطيفة.

- لا شك أنّ لي الشرف أن أتحدث لألكسي إيفانوفيتش. قال بصوت عذب يناقض بشكل هزلي ظروف اللقاء.

- ألست بافيل بيتروفيتش بذاته وصفاته؟ صاح فيلتشانينوف، وكأنه اكتشف شيئاً جديداً.

- لقد مضت على تعارفنا تسع سنوات بـ T... وإذا سمحت لي، أذكِّرك بأننا كنّا صديقين جيدين.

- نعم، ما في ذلك شكّ... ممكن... ولكن... إنها الآن الثالثة صباحاً، وأنت منذ عشر دقائق تحاول فتح منزلي.

- الثالثة، معبِّراً عن اندهاشه، وهو يخرج ساعته من جيبه، أعتذر عن الإزعاج يا سيد ألكسي، كان عليَّ أن أفكِّر في ذلك، أنا

جدّ محرج، سآتي في المرة القادمة وأشرح لك كل شيء، الآن. . .

- لا، أبداً، إذا كان هناك من شرح، الأحسن أن تقوم بذلك الآن، أرجوك، تفضل، أنت هنا من أجل دخول منزلي، وليس لفتح الأقفال فقط. كان متأثراً ومنزعجاً شيئاً ما، زِدْ على ذلك أنه كان غير قادر على تجميع أفكاره، وهو ما يُشعره بالخجل. لا غرابة، لم يبقَ من كلّ هذه الأوهام سوى وجه بافيل بافيلوفيتش الأبله. رغم ذلك لم يكن متأكداً بأن الأمور بسيطة إلى هذا الحدّ. لقد كان يراوده إحساس غامض بأن هناك شيئاً غريباً وراء هذه الزيارة. بعد أن عرض على ضيفه الجلوس فوق الكنبة، جلس هو فوق السرير على بُعد خطوة منه، مائلاً إلى الأمام، وواضعاً راحتيه على ركبته، ومنتظراً بوهنٍ ما سيقوله الآخر. بدأ يتفحّصه بنهمٍ، باذلاً مجهوداً للتذكر، لكن الغريب هو أنّ الآخر ظلّ صامتاً، يظهر أنه لم يفهم أنّ عليه تقديم شروحاته على الفور، فبقي على العكس من ذلك ينظر إلى فيلشانينوف، منتظراً شيئاً ما. من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد ولَّد لديه شعوراً بالخوف وعدم الارتياح، وبدا كأنه فأرة علقت بمصيدة، لكن فيلتشانينوف انفجر في وجهه.

- ماذا تريد؟ أنت لست شبحاً أو حلماً، على ما أعتقد. أتيت إلى هنا لكي تلعب دور الأموات. . . اشرح لي أيها الأب الصغير.

ارتبك الزائر، وابتسم، ثم شرع في الحديث بحذر.

- ما يدهشك على الخصوص هو حضوري، في هذا الوقت. . . وفي هذه الظروف الخاصة جداً. . . وأنا أتذكر ما حدث بيننا وكيف افترقنا، يظهر لي الأمر غريباً، أضِف إلى ذلك

أني لم أكُن أفكر في الدخول، وإذا ما أخذت الأمور هذا المنحى، فإنّ ذلك مجرَّد صدفة.

- صدفة... كيف؟ لقد رأيتك من النافذة، وأنت تعبر الشارع على رؤوس الأصابع.

- لقد رأيتني إذن. في هذه الحالة، من المحتمل أن تعرف أكثر مني بخصوص هذا الموضوع، لكن أنا لا أعمل سوى على اختبار صبرك. إليك الحكاية: أنا هنا منذ ثلاثة أسابيع لأجل قضاء أغراض تخصّني... أنا بافيل بافيلوفيتش تروسوتسكي. لقد تعرَّفت عليّ دون شك، أقوم ببعض الإجراءات لتغيير المصلحة التي أعمل بها، وأحصل على تعيين ومنصب أكثر أهمية، مع زيادة في الأجر لا ليس هذا بالضبط، المهم هو أنني أهدر وقتي منذ ثلاثة أسابيع، ويظهر أني أنا الذي أؤخِّر هذه القضية، قضية تعييني، وبكلّ صدق حتى لو لم تحلّ المسألة فإنني سأنسى ذلك، ولن أقدر على مغادرة بطرسبرغ وأنا على هذه الحال... أتسكّع وكأنّ لا هدف لي، وكأني سعيد بهذه الوضعية.

- أي وضعية؟ قاطعه فيلتشانينوف.

فنظر إليه الضيف، وأخذ قبّعته بحركة جدّ وقورة، ثم أشار إلى ثوب الحداد.

- نعم هذه حالتي الذهنية.

شرع فيلتشانينوف ينظر تارة إلى ثوب الحداد، وتارة في اتجاه وجه ضيفه، وفجأة احمرّ وجهه، وصرخ:

- مَن؟ ناتاليا فاسيليفنا؟

- نعم... في آذار/ مارس الماضي... بالسلّ... بشكل مفاجئ... خلال شهرين أو ثلاثة... وأنا ما زلت على قيد الحياة كما ترى.

بعد هذه الكلمات، قام الزائر بتأثُّر كبير، بفتح ذراعيه، ممسكاً قبعته بيده اليسرى، تاركاً رأسه الأصلع يسقط فوق صدره، حيث بقي في هذه الوضعية لبضع دقائق.

هذا المنظر وتلك الحركة زرعا الحيوية في فيلتشانينوف بشكل مفاجئ، بل أكثر من ذلك تسربَّت بين شفتيه ابتسامة ماكرة ومشفَّرة، لكن لأمر لم يدُم سوى لحظات. خبر وفاة تلك المرأة (التي تعرَّف عليها منذ مدّة ونسيها مطلقاً)، خلَّف لديه شعوراً عميقاً ومباغتاً. تمتم:

- هل هذا ممكن؟ لماذا لم تأتِ إليّ بشكل صريح، وتخبرني بذلك.

- أشكرك على لطفك، إنني أحسّ به وأراه... رغم...

- رغم ماذا؟

- رغم أننا لم نلتقِ منذ سنوات، شاركتني آلامي، وأظهرت تعاطفاً لا يمكنني إلا أن أقدره. هذا كلّ ما أردت قوله لك. هذا لا يعني أني أشكّ في أصدقائي الآخرين، فأنا أستطيع وفي الحين أن أعثر على أصدقاء مخلصين، لكن علاقتنا القديمة، بل قُل صداقتنا مرّت عليها تسع سنوات دون أن نلتقي أو نتبادل الرسائل.

كان الزائر يتحدث وكأنه يستظهر درساً حفظه عن ظهر قلب، وهو يتحدث أبقى عينيه للأرض دون أن يغفل أي شيء من الذي حدث، لقد أصبح فيلتشانينوف سيد نفسه. يسمع لبافيل بافيلوفيتش

وينظر إليه بانطباع غريب، وفجأة، عندما سكت بدأت أغرب الأفكار وأشدّها فرادة تغزو ذهنه.

- لكن لماذا لم أتعرف عليك إلى حدّ الآن؟ صرخ فيلتشانينوف، لقد التقينا خمس مرات وجهاً لوجه.

- نعم، أذكر ذلك، أنت تتواجد دائماً في طريقي، مرتين أو ربما ثلاث مرات.

- بالعكس أنت الذي تتواجد في طريقي.

نهض فيلتشانينوف وانفجر ضاحكاً بشكل مفاجئ. بقي بافيل بافيلوفيتش مندهشاً للحظة، نظر إليه بهدوء ثم واصل:

- فيما يخصّ عدم تعرُّفك عليّ، هذا طبيعي، قد تكون نسيتني، هذا إضافة إلى كوني أصِبت بمرض الجدري ممّا ترك بعض الندوب على وجهي.

- الجدري؟ فعلاً لقد أصيب بمرض الجدري، لكن كيف؟

- كيف أصابني؟ شيء طبيعي... لم أكن أنتظر ذلك، لقد لسعني فجأة.

- رغم ذلك فهذا شيء مسلٍّ، واصل، واصل يا صديقي العزيز.

- رغم ذلك التقيت بك.

- توقف. لماذا قلت لسعني؟... آه، أكمل... أكمل.

الله وحده يعلم لماذا أصبح أكثر مرحاً، الضغط الذي كان يحسّ به منذ قليل، حلَّ محله إحساس مغاير كلياً. وبدأ يقطع الغرفة طولاً وعرضاً.

- إذن رغم أني سبق لي أن التقيت بك، وجئت إلى بطرسبرغ، وأنا مصمِّم على لقائك من جديد، فإنني الآن في حالة نفسية... أنا جد مضطرب منذ شهر آذار/ مارس.

- مضطرب منذ شهر آذار/ مارس؟ آه، نعم بالتأكيد، معذرة، أتدخن؟

- ربما، أنت تعرف من حين إلى آخر، ناتاليا فاسيليفنا...

- نعم، نعم أعرف، لكن ماذا حدث منذ شهر آذار/ مارس؟

- أعطني سيجارة.

- خذ. أشعلها، وواصل، لقد...

بعد أن أشعل فيلتشانينوف سيجارة، جلس فجأة فوق سريره، فتوقف بافيل بافيلوفيتش.

- أنت أيضاً تبدو مضطرباً، هل أنت بخير؟

- إلى الجحيم، أنا لا أهتم بصحتي، واصل...

من جهته، رغم اضطراب صاحب المنزل، أحسّ الضيف برضا وبثقة بالنفس زائدة، فواصل.

- ماذا عساني أن أقول؟ تخيل أولاً يا ألكسي، رجلاً مقتولاً تماماً، رجلاً بعد عشرين سنة من الزواج محمّلة بالحياة، يجد نفسه متسكِّعاً في الأزقة المغبرة، وكأنه يمشي عبر السهب دون هدف ودون وعي وبلامبالاة تمنحه نوعاً من اللذة، إذا التقيت شخصاً من معارفي، أو حتى صديقاً حقيقياً، أرى أنه من الطبيعي أن أتفاداه ولا أقترب منه، لكن في أوقات أخرى تكون الذكرى جدّ حية، إلى درجة نكون متعطِّشين لرؤية شاهد واحد من أولئك الذين كانت لهم علاقة بهذا الماضي القريب، فنجري لنرتمي في أحضانه سواء في

الليل أو في النهار، حتى ولو جازفنا بإيقاظه على الساعة الثالثة صباحاً. لقد أخطأت التوقيت فقط، لم أخطئ الصديق، فأنا كوفئت بشكل كامل. فيما يخص الساعة، فأنا اعتقدت أننا في منتصف الليل، خاصة أني لم أكن أشعر بالنوم. نشرب حزننا الخاص ونسكر، ليس الحزن فحسب، بل شيئاً جديداً يقرصنا من الداخل.

- أنت تتكلم بشكل غريب. لاحظ فيلتشانينوف بقتامة وبجدية كبيرة.

- نعم أنا أعبِّر بشكل غريب، وأنت هل تمزح؟

صرخ بافيل بافيلوفيتش بنبرة ألم.

- أمزح، في الوقت الذي أعلن فيه...

- آه، اصمُتْ. لا تتحدث عن هذا أرجوك. نهض فيلتشانينوف، وبدأ يتمشى بالحجرة.

مرت خمس دقائق على هذا الحال، حاول الزائر النهوض، لكن فيلتشانينوف صرخ في وجهه: «ابقَ جالساً، ابقَ جالساً»، فجلس على الفور فوق الكنبة.

- لقد تغيرت كثيراً، واصل فيلتشانينوف، ووقف أمامه فجأة، كما لو أنه أراد ضربه بشكل مباغت، لقد تغيَّرت بشكل مروّع، كأنك رجل آخر.

- ليس هناك ما يُثير الاستغراب، لقد مرَّت تسع سنوات.

- لا، لا، لا دخل للسّن هنا، ليس شكلك الذي تغيّر، بل شيء آخر.

- نعم، ذلك ممكن، لقد مرّت تسع سنوات.

- ألا يمكن أن يكون ذلك قد حدث منذ تسع سنوات؟

قال بافيل بافيلوفيتش، بابتسامة ماكرة:

- إنها فكرة طائشة، لكن اسمح لي أن أتجرأ وأسألك: ما هو التغيير الذي لاحظت؟

- بصراحة، من قبل كان بافيل بافيلوفيتش شخصاً محترماً، مهذباً، حكيماً، لكنه الآن مجرّد نذل.

بلغ من الانفعال درجة كبيرة، حتى إن أعقل الناس وأهمَّهم يمكنه أن يتفوه بكلمات صادمة.

- نذل؟ أتظن ذلك؟ . . . أنا لست حكيماً؟ قال بافيلوفيتش برضى ظاهر.

«أنا وقح، فكّر فيلتشانينوف، لكن هذا الوغد أكثر وقاحة مني، ما هو هدفه يا ترى؟».

- آه عزيزي، حبيبي ألكسي إيفانوفيتش، صرخ الزائر فجأة بتأثر، وهو يتحرك فوق الكنبة بانفعال، هذا لا يهم، لم يعُد لنا مكان في المجتمع الراقي، نحن صديقان قديمان فقط اجتمعا بكل حميمية، لنذكر هذه العلاقة الغالية التي تمثل المرحومة خيطها الرفيع، الذي يربط بيننا.

كان تأثره قوياً، حيث خفض رأسه، وخبأ وجهه داخل قبعته كما فعل في السابق، وكان فيلتشانينوف يتأمله باشمئزاز وقلق. «مَن يدري قد يكون مجرد بهلوان، لكن لا . . لا، هو ليس سكران، قد يكون كذلك، فوجهه أحمر، حتى لو كان سكران، فذاك لا يهم. . . ماذا يفبرك. . . ماذا يريد هذا الوغد؟».

- أتذكر. . . أتذكر؟ قال بافيل بافيلوفيتش، وهو يزيح قبعته تاركاً نفسه عرضة للذكريات، أتذكر خرجاتنا إلى البادية، ليالينا الراقصة، وألعابنا الصغيرة عند سعادته، سيمون إيفانوفيتش الذي يستقبلنا بحفاوة، قراءاتنا الليلية نحن الثلاثة، ولقاءنا الأول، عندما زرتني لتستشيرني بخصوص قضيتك: أتذكر، كيف كنت على وشك الغضب مني، فدخلت فجأة ناتاليا فاسيليفنا، وبعد ذلك بعشر دقائق أصبحت صديقاً حميماً لنا، وقد استغرق هذا عاماً بالضبط، كما حدث في مسرحية «الريفية»، للسيد تورجنيف؟

كان فيلتشانينوف يتفسح في الغرفة وعيناه للأرض، يستمع بنفاذ صبر واشمئزاز، لكن بانتباه.

- لم أفكر قط في «الريفية»، قاطَعه بحرج، ولم يسبق لي أبداً أن تكلَّمت بصوت مرتفع، وبهذه النبرة التي ليست نبرتك، لماذا كل هذا؟

- فعلاً، مواصلاً بحيوية. من قبل، وفي أغلب الأحيان، كنت أصمت، لقد كنت أكثر هدوءاً، من قبل، كنت أفضِّل الإنصات عندما تتكلم المرحومة، أتتذكر كيف كانت تتحدث، وبأي عقلية؟ أما في ما يتعلق بـ«الريفية»، وخصوصاً ستوبندييف، فأنت على حق أيضاً: فيما بعد مغادرتك لنا، وعندما نتذكرك في هدوء، المرحومة وأنا، ربطنا بين لقائنا الأول ومسرحية تورجنييف، وموضوع ستوبندييف أيضاً.

- عن أيّ ستوبنديف تتحدث؟ اللعنة عليك، صرخ فيلتشانينوف ضارباً الأرض برجليه، حيث أربَكَه اسم ستوبندييف الذي يخلف بداخله ذكرى بعيدة.

- ستوبنديف، إنه شخصية كوميدية، إنه «الزوج» بمسرحية «الريفية»، قال بافيل بافيلوفيتش، بصوت شديد النعومة والرقة، لكن هذا يتعلق بسلسة أخرى من ذكرياتنا الجميلة والعزيزة. كان ذلك بعد مغادرتك، عندما شرَّفنا ستيفان ميخايلوفيتش بوكايتوف بصداقته، تماماً كما فعلت لمدة سنين طويلة.

- بوكايتوف؟ ماذا؟ أي بوكايتوف؟ توقف فيلتشانينوف جامداً في مكانه.

- بوكايتوف، ستيفان بوكايتوف الذي شرفنا بصداقته، سنة بالضبط قبل معرفتك.

- آه، يا إلهي. أعرف ذلك. صرخ فيلتشانينوف بعد أن فهم الأمر، بوكايتوف كان موظفاً بمدينتنا.

- نعم، كان ملحقاً لدى الحاكم، شاب ذو أناقة عالية، ينتمي إلى الطبقة الراقية لبطرسبرغ. أضاف بافيل بافيلوفيتش بحماس صادق.

- نعم... نعم... فبما كنت أفكر؟ هو أيضاً...

- هو أيضاً... هو أيضاً... ردَّد بافيل بافيلوفيتش بالحماس نفسه، حيث التقط الكلمة الطائشة لمحدثه، هو أيضاً. هكذا لعبنا «الريفية» فوق الخشبة كهواة، أمام سعادته، السيد ستيفان ميخايلوفيتش الذي استقبلنا بحفاوة بالغة، ستيفان ميخايلوفيتش كان يلعب الكونت، وأنا الزوج، والمرحومة الريفية، لكن سرعان ما سحبوا مني دور الزوج تحت إلحاح المرحومة، لم ألعب إذن دور الزوج، قالوا بأنني كنت عاجزاً عن ذلك.

- لكن من ادّعى أنك ستوبانديف؟ أنت قبل كل شيء بافيل بافيلوفيتش، ولست ستوبانديف. كان يرتعد من فرط الغضب، وهو يصرخ من دون أي حرج. اسمح لي، فبوكايتوف يوجد هنا ببطرسبرغ، رأيته بنفسي في فصل الربيع. لماذا لا تقُم بزيارته أنت كذلك؟

- إني أزوره كلّ يوم منذ أسبوع، لكنه يرفض استقبالي. إنه مريض جداً. تخيّل لقد علمت من مصادر موثوق بها، أنه مريض جداً. صديق قديم. آه، يا ألكسي إيفانوفيتش، صديق قديم كهذا، أقولها وأكرّرها، يجعلك في بعض الأحيان تتمنى أن تبتلعك الأرض. وفي آخر اللحظات، أجد نفسي مستعداً للارتماء بين أحضان أحد هؤلاء الشهود، واحد من أولئك الذين قاسموه هذه الحياة، نرتمي فقط في أحضانه، لنبكي معاً.

- حسناً، هذا يكفي. قاطعه فيلتشانينوف بعنف.

- أكثر من كافٍ... أكثر من كافٍ... ونهض بافيل بافيلوفيتش. إنها الرابعة، لقد أزعجتك بأنانيتي.

- اسمع، سأزورك دون شك، وأتمنى... قل لي بصراحة، ألست مخموراً اليوم؟

- مخمور؟ لا، أبداً.

- ألم تشرب قبل مجيئك إلى هنا؟

- أتعلم يا ألكسي، أنت مصاب بالحمى.

- سأزورك غداً، قبل الواحدة.

- ألاحظ منذ برهة أنك تهذي، تقريباً. قاطعه ملحّاً على

الموضوع، وهو يشعر بنوع من الرضا. أنا جدّ محرج من أن أكون... حسناً، سأذهب... سأذهب، أما أنت فحاول أن تنام.

- لكن لم تقُل لي أين تقطن؟ صرح فيلتشانينوف متداركاً الأمر.

- ألم أخبرك بذلك؟ بنزل بوكروفسكي.

- ما هذا النزل؟

- قرب كنيسة بوكروف، في زقاق نسيت اسمه، نسيت كذلك الرقم، لكن بالقرب من الكنيسة.

- سأجده.

- مرحباً بك أيها الضيف العزيز.

كان قد وصل السلم، عندما سمع هذه الجملة.

- توقف. صرخ فيلتشانينوف من جديد، لن ترحل هكذا.

- «أرحل» كيف ذلك، قال بافيل بافيلوفيتش الذي نزل ثلاث درجات، واستدار، وعيناه مفتوحتان، لكن ابتسم. وكجواب صفق فيلتشانينوف الباب بعنف، ثم أدار المفتاح، ودفع المزلاج، وعندما عاد إلى غرفته بصق باشمئزاز، وكأنه تلطّخ بشيء ما. بقي واقفاً وسط الغرفة لمدة عشر دقائق، ثم ارتمى فوق السرير دون أن يبدِّل ملابسه، ونام على الفور. الشمعة التي نسي إطفائها بقيت تحترق إلى أن لامست الطاولة.

IV

المرأة والزوج والعشيق

نام فيلتشانينوف نوماً عميقاً، ثم استيقظ بالضبط عند الساعة التاسعة والنصف، ونهض على الفور، وجلس فوق سريره، وهو يفكر في وفاة تلك المرأة. الاضطراب الذي أحسّ به عند سماعه خبر وفاتها بالأمس، جعله يشعر بألم وضيق. لقد تمكَّن من السيطرة على مشاعره أمام بافيل بافيلوفيتش، لكن هذا الصباح كل هذا الماضي الذي مرّت عليه تسع سنوات، عاد أمام أعينه بوضوح تام.

تلك المرأة، المرحومة، ناتاليا فاسيليفنا، زوجة ذلك «التروسوتسكي»، كان قد أحبّها، وكانت عشيقته عندما أمضى سنة بكاملها T. . . لأجل قضيته (يتعلق الأمر بمسألة إرث)، التي لا يتطلب إنجازها كل هذا الوقت. فالسبب الحقيقي كان هو هذه العلاقة. هذه العلاقة وهذا الحب سيطرا على ذهنه حتى أنه تحول إلى عبد في ملكية ناتاليا فاسيليفنا، كان على استعداد للقيام بالأعمال الأكثر وحشية والأكثر عبثية، إذا كانت تلك نزوة من نزوات تلك المرأة. لم تحصل له مثل هذه المغامرة لا من قبل، ولا من بعد.

عند نهاية السنة، عندما أصبح الفراق أمراً محتوماً، أحسّ فيلتشانينوف بخيبة أمل كبيرة، رغم أنّ هذا الفراق لم يدُم طويلاً، فقد اقترح على ناتاليا بأن يقوم باختطافها، ويذهب بها خارج البلاد. وحدها صلابة هذه المرأة، إضافة إلى تهكُّمها جعلاه يتراجع عن فكرته، ويسافر وحده.

وما إنْ مرّ شهران على ذلك الفراق، حتى بدأ يطرح سؤالاً عسير الإجابة، هل فعلاً أحب تلك المرأة، أم هو فقط نوع من «الافتتان»؟ طرحه لهذا السؤال لم تكن وراءه حماقة معينة، أو ولادة حب جديد. فخلال هذين الشهرين، كانت الدهشة تجعله لا يعير اهتماماً للنساء، رغم أنه استعاد علاقته القديمة، وأصبحت له فرصة لقاء العديد من النساء. إضافة إلى ذلك فهو يعرف أنه رغم جميع الشكوك التي تساوره (بعد عودته من T. . . وبعد أكثر من خمس سنوات)، فإنه سيسقط من جديد وعلى الفور، تحت سيطرة جمال تلك المرأة. بعد عودته من ت. و. بعد مرور أكثر من خمس سنوات، ما زال مقتنعاً بهذا الأمر، لكنه لم يكن يعترف لنفسه بذلك، إلا تحت تأثير الغضب، فهو لم يعُد يقدر على تذكُّر تلك المرأة دون كراهية. لقد كان يخجل من السنة التي قضاها بـ T. . . لم يستطع تصور إمكانية حدوث مثل هذا الحب الغبي من طرفه هو، فيلتشانينوف.

كل الذكريات المتعلقة بهذا الهوى أصبحت تُشعره بالغثيان. فوجهه يحمرّ لدرجة البكاء، ويلوم نفسه بألم. صحيح أنه بعد مرور

السنين أصبح أكثر هدوءاً، ونجح تقريباً في نسيان كلّ شيء. وبعد تسع سنوات، ها هو كل شيء ينبعث من جديد بشكلٍ غريب ومفاجئ، مع خبر وفاة ناتاليا فاسيليفنا.

جلس فوق السرير، وداهمته أفكار غامضة، كانت تضغط بكثافة وقوة، أصبح لا يحسّ ولا يفهم بوضوح إلا مسألة واحدة: رغم الارتجاج الذي خلقه لديه ذلك الخبر، فإنه يحسّ بنوع من الراحة عندما علم بوفاتها وتساءل: «ألن أشعر بالأسى لوفاتها؟». صحيح، بما أنه الآن لا يشعر بأية كراهية تجاهها، بإمكانه إصدار حكم محايد وإنصافها. الرأي الذي خلص إليه خلال تسع سنوات هو أن ناتاليا فاسيليفنا تنتمي إلى جماعة النساء البدويات العاديات، نساء المجتمع البدوي «الراقي». «من يدري؟ كنت أنا الوحيد الذي نسج أفكاراً غريبة حول هذه المرأة؟». لقد شكَّك دائماً ولو جزئياً، في صحة هذا الرأي، إنه يحسّ بذلك الآن، لكن هذا الرأي تكذِّبه الوقائع. بوكايتوف هو الآخر كانت له علاقة بتلك المرأة، علاقة دامت أربع سنوات، هو الآخر سقط في حبال جمالها، بوكايتوف ينتمي إلى صفوة بورجوازية من بطرسبرغ. وبما أنه «رجل فارغ» كما يقول عنه فيلتشانينوف، فإنه استطاع أن يشق طريقه ببطرسبرغ، رغم ذلك فقد أهمل هذه المدينة التي تمنحه العديد من الامتيازات، ليستقر بـ T... لعدة سنوات فقط، من أجل تلك المرأة. ها قد عاد إلى بطرسبرغ، لكن من المحتمل أن يكون سبب هذه العودة هو أنّ المرأة التي أحب، رمت به «كأي حذاء بالٍ». لا شك أنّ هذه المرأة تتوفر على موهبة خارقة، فهي تسلب، وتستعبد، وتسيطر.

رغم ذلك يبدو أنها لا تتوفر على ما يمكن أن يغري أو يستعبد، لم تكن جميلة بالقدر الكافي، أو من الممكن أن لا تكون جميلة البتة. كانت في العشرين من العمر، عندما التقاها فيلتشانينوف، وجهها لم يكن جميلاً، في بعض الأحيان كانت تعلوه حيوية عذبة، لكن عيناها كانتا بشعتين للغاية، كانت تنبعث من نظراتها قسوة مبالغ فيها. كانت نحيلة، وذات مستوى ثقافي هزيل جداً، وعقلها ثاقب، ولكنه محدود جداً، أسلوب حياتها بدوي، رغم ذلك فهي لبقة وذات ذوق رفيع، وهو ما لا يظهر سوى في طريقة لباسها. طبعها حادّ ومهيمن، لا يمكن أن نسمع منها أنصاف الحلول: «الكل أو لا شيء»، صرامتها، ومثابرتها أمام المسائل الصعبة تثيران الإعجاب. لقد كانت كريمة بشكل كبير، وفي الآن نفسه ظالمة بلا حدود. من المستحيل مجادلتها، إذ «اثنان في واحد» بالنسبة إليها، لا تعني شيئاً. خيانتها المتعددة واللامحدودة لزوجها لا تخلق لديها أي تأنيب ضمير. كان فيلتشانينوف يقارنها بالنسوة اللواتي ينتمين إلى جماعات دينية تطلق على نفسها «مريم العذراء»، ويعتقدن جادات أنهن «أمهات الرب». كانت وفية لعشاقها، لكن في حدود الحاجة إليهم. كانت ذات طبيعة انفعالية وحشية وشبقية. كانت تكره الانحلال الخلقي، تستهجنه، لكنها كانت فاسدة الأخلاق. كان من المستحيل أن تجعلها تنتبه لفسادها. «أكيد أنها تجهل ذلك»، قال فيلتشانينوف عندما كان بـ T. . . «إنها من النساء اللواتي أنجبن كي يكنّ خائنات لأزواجهن». يعتقد فيلتشانينوف أنها من النساء اللواتي لا يسقطن في حضن الرجال إبان فترة العزوبية،

إذ يكون عليهن بحسب قانونهن الطبيعي انتظار الزوج، فالزوج هو دائماً العشيق الأول، يحدث ذلك قبل الزواج وليس بعده. ليس هناك أمهر منهن في اقتناص الأزواج. الزوج هو دائماً المسؤول عن العشيق الأول. زِدْ على ذلك أنّ الأمور تمرّ بجدية تامة، فهن يعتبرن أنفسهن على حق، وبريئات تماماً بطبيعة الحال.

كان فيلتشانينوف مقتنعاً بوجود هذا الصنف من النساء، لكنه كان متأكداً أيضاً من وجود صنف من الأزواج مطابق لذلك النوع من النساء، زوج سبب وجوده الوحيد هو التطابق في الرأي مع تلك العيِّنة من الجنس اللطيف. الصفة الأساسية لذلك النوع من الأزواج هو أن يكون «زوجاً أبدياً»، أو بتعبير أوضح وجودهم يتلخّص في دورٍ واحد أنهم أزواج. «رجل كهذا لم يخلق، ولم يتطور، إلا ليتزوج، ويصبح مكمِّلاً لزوجته، رغم كونه يتميز بطبعه الخاص. فكما أن من المستحيل أن تبزغ الشمس دون إضاءة، يكون من المستحيل أن يحمل الزوج قرنين بارزين، فهو لا يجهل ذلك فحسب، لكن عليه أن يتجاهله. ذلك هو قانون الطبيعة». كان فيلتشانينوف يؤمن بشكلٍ قاطع، بوجود هذا النوع من الأزواج، فبافيل تروسوتسكي كان بـ T. . . يمثِّل بالضبط في نظره، واحداً من هذه الأصناف. بافيل بافيلوفيتش الذي غادر للتو، ليس ذلك الذي عرفه بـ T. . . ، لقد تغيَّر بشكل عجيب، لكنه يعرف أنه لا يمكنه سوى أن يتغير، وهذا أمر جدّ طبيعي: فتروسوتسكي الحقيقي، الذي عرفه من قبل لا يمكنه أن يحسّ بوجوده إلا بوجود زوجته على قيد الحياة، وما تبقى منه الآن ليس سوى جزء من هذا

الكل، لا أقل ولا أكثر، بقي منه شيء ما، شيء لا يشبه أي شيء.

وفيما يخص ما كانه بافيل بافيلوفيتش بـ T. . . وما حافظ عليه فيلتشانينوف من ذكريات، فقد عاد ليطفو في ذهنه من جديد:

«بافيل بافيلوفيتش الذي عرفه بـ T. كان زوجاً، لا أقل ولا أكثر، وإذا كان موظّفاً في الوقت نفسه، فذلك فقط لكي يتفرّغ لجزء مهم من دوره كزوج: لقد أخذ له مكاناً في الترتيب الإداري للموظفين، حتى يتسنى له ضمان مكانة متميزة لزوجته داخل المجتمع الراقي بـ T. . . لقد كان يعمل من أجل ذلك بحماس كبير. كان عمره خمسة وثلاثين سنة، كانت له ثروة لا بأس بها. لم يكن يظهر في عمله قدرات لافتة ولا ضعفاً ظاهراً. لقد كان يستقبل في الأوساط الحكومية المرموقة. الجميع بـ T. . . يحترم ويقدّر ناتاليا فاسيليفنا، لكنها لم تكن لتُعير ذلك أي اهتمام، فهي تعتبر ذلك شيئاً مستحقّاً. كانت تتقن أصول الضيافة، كما أنها درّبت بافيل بافيلوفيتش، فهو اكتسب أحسن العادات، وأضحى يعرف كيف يستقبل كبار الشخصيات. قد يكون شخصاً ذكياً حيث لم تُتِح له ناتاليا فرصة إظهار ذكائه. فهو ربما يتوفر على عدة مزايا طبيعية، وكذلك بعض النواقص، لكن المزايا كثيراً ما تطغى على العيوب. فمثلاً يتذكر فيلتشانينوف أن بافيل بافيلوفيتش كان دائماً ينجذب نحو السخرية من جاره، لكن زوجته تمنعه من ذلك بشكل قاطع. كان يحب في بعض الأحيان سرد حكايات معينة، لكن ذلك كان يخضع لرقابتها أيضاً: لم يكن يسمح له إلا بحكايات لا معنى لها. كان يحبّ لقاء أصدقائه خارج المنزل من أجل التسلية والشرب، لكنه

سرعان ما أخمَد هذا التوجّه في المهد. ورغم ذلك لا يمكن لأيّ أحد أن يجزم بأنه كان تحت خفّ زوجته. ناتاليا فاسيليفنا كانت تبدو كزوجة مطيعة، وربما كانت هي تعتقد أنها كذلك. ربما كان بافيل بافيلوفيتش يحبّ ناتاليا بجنون، لكن لا يلاحظ ذلك، لكن كان من المستحيل معرفة ذلك، نظراً إلى التدابير التي اتّخذها فيلتشانينوف. في العديد من المرات كان فيلتشانينوف يتساءل إذا ما كان الزوج على علم بعلاقته بها. لقد طرح السؤال مراراً على ناتاليا فاسيليفنا، التي كانت دائماً تجيبه وهي تكاد تفقد صبرها، أنّ زوجها لا يعلم شيئاً ولن يعلم شيئاً. زِدْ على ذلك أنّ الأمر لا يهم في شيء. مسألة أخرى مثيرة للاستغراب: إنها لا تسخر أبداً من بافيل، وفي جميع الأحوال، لا ترى أنه شخص سخيف يبعث على القرف، بل أكثر من ذلك لقد كانت مستعدة للدفاع عنه إذا ما أساء أحدهم إليها. وبما أنه ليس لديها أطفال، فقد أصبحت تقريباً سيدة من سيدات المجتمع الراقي دون أن تتخلى عن دورها كربّة بيت. لقد تذكّر بافيل بافيلوفيتش بالأمس، القراءات العائلية المسائية بـ T. . . بالفعل، في بعض الأحيان كان فيلتشانينوف هو الذي يقوم بالقراءة، وأحياناً أخرى يقرأ بافيل بافيلوفيتش. لقد كان يفاجئ فيلتشانينوف بقراءته الجيدة وصوته المرتفع. أما بخصوص ناتاليا فسيليفنا فكانت تقوم بالطرز، وفي الوقت نفسه تستمع للقراءة بهدوء واهتمام. كانوا يقرؤون روايات ديكنز، الجرائد الروسية، وفي بعض الأحيان أشياء «جدية». كانت فاسيليفنا تقدّر ثقافة فيلتشانينوف بشكل كبير، لكن دون أن تتحدث عن ذلك، لقد كان أمراً محسوماً ولا حاجة إلى

العودة إليه. عموماً كانت ناتاليا لا تبالي بالعلوم أو الكتب، وكأنها أشياء لا تهمّها في شيء، لكنها تعتقد أنه ربما قد تكون لها منفعة ما. أما بافيل فقد يظهر حماساً لتلك الأشياء، هذه العلاقة وضع لها حدّ بشكل مفاجئ، وبالضبط في الوقت الذي وصل فيه حب فيلتشانينوف إلى أقصى درجاته، بل وصل تقريباً حدّ الجنون. لقد طرد ببساطة بشكل مفاجئ، رغم أنه خطَّط لكل شيء بشكل يجعله يرحل دون أن يحسّ بأنه شخص غير مرغوب فيه. «وكأنه حذاء قديم لم يعُد صالحاً لشيء»».

شهر ونصف قبل رحيله من T... ، ظهر ضابط مدفعية شاب، كان قد أنهى دراسته بمدرسة الفتيان، بدأ يتردّد على أسرة تروسوتسكي، وهكذا بدلاً من ثلاثة أصبحوا أربعة. لقد استقبلت ناتاليا الشاب بحفاوة كبيرة، وكانت تعامله كطفل. لم يشكّ فيلتشانينوف في شيء إلى درجة أنه لم يعُد يفهم شيئاً، عندما أوعزوا له أنّ الفراق أصبح حتمياً. ومن ضمن المئات من الأسباب التي ساقتها ناتاليا فاسيليفنا لإقناعه بالرحيل، كان الحمل، لقد كانت تعتقد أنها حامل، لهذا كان عليه أن يرحل في الحال، أن يختفي لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، وذلك حتى لا يتسرّب أيّ شك لزوجها بعد مرور تسعة أشهر، إذا ما حاول أحدهم أن يشي بها. لقد كانت حجّتها ضعيفة، وتحت ضغط الحماس اقترح عليها فيلتشانينوف الهروب إلى باريس أو أميركا، لكنه رحل لوحده إلى بطرسبرغ «لمدة وجيزة»، أي ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، وإلا ما كان ليرحل رغم الحجج والإيضاحات التي قدمت له.

بعد مرور شهرين بالضبط، تلقى رسالة من ناتاليا ترجوه ألا يعود أبداً، لأنها تحب شخصاً آخر، أما بخصوص حملها فقد قالت إنّ ذلك مجرد خطأ. هذا التفسير الأخير لم يكن ضرورياً، كل شيء أصبح واضحاً: لقد تذكّر ذلك الضابط الصغير. لقد انتهى كل شيء، وقد علم فيما بعد، بعد خمس سنوات، أنّ بوكايتوف مكث خمس سنوات بـ T. . . ، ولقد فسر المدة غير العادية لهذه العلاقة بكون ناتاليا فاسيليفنا، بعد تقدمها في السن، ظلت متمسكة به أكثر فأكثر.

بقي فيلتشانينوف جالساً فوق سريره لمدة ساعة تقريباً، ثم عاد إلى رشده، ونادى مافرا لتحضر له قهوته، شربها بسرعة، وارتدى ملابسه، وخرج بالضبط عند الساعة الحادية عشرة، كي يبحث عن فندق بوكرفسكي. راودته هذا الصباح فكرة جديدة بهذا الخصوص، إضافة إلى ذلك كان حائراً شيئاً ما حول طريقة استقباله بالأمس لبافيل بافيلوفيتش. لقد كان من الضروري أن يستوضح الأمر.

كل تلك الهلوسة التي حدثت بالأمس، يفسِّرها بكون فيلتشانينوف كان مخموراً، وأنها نتاج الصدفة وأشياء أخرى، لكنه لا يتصور وضوح هدفه من محاولة ربط علاقة ما بزوج سابق، بينما كل شيء انتهى بينهما.

شيء ما يدفعه لذلك، انطباع خاص جداً، وهو بالضبط سبب كل هذه الجاذبية.

V

ليزا

لم يفكر بافيل بافيلوفيتش في «الهرب»، الله وحده يعلم لماذا طرح عليه فيلتشانينوف ذلك السؤال، لقد كان عقله مضطرباً. بأحد المتاجر الصغيرة، قرب ساحة بوكروف، دله أحدهم على فندق بوكروفسكي، الذي يوجد على بُعد خطوتين، في زقاق ضيق. بالفندق قيل له إن تروسوتسكي يسكن شقة مفروشة عند ماريا سيسويفنا بملحق يوجد بنهاية الممر، وبينما هو يصعد السلم الحجري المليء بالقاذورات، متجِّهاً إلى الطابق الثاني، حيث توجد الشقق المفروشة، سمع أحدهم يبكي. يبدو أنه بكاء طفلة في السابعة أو الثامنة، البكاء كان مؤلماً حيث يسمع شهيق مخنوق، ينفجر فجأة، مصحوباً بصرخات غاضبة وحادّة، وزعيق رجل يحاول تهدئة الطفلة على ما يظهر. إنه يريد ألا يسمع بكاء الطفلة، لكن صراخه فاقَ البكاء، الصراخ كان وحشياً، ويبدو أنّ الطفلة كانت تطلب الصفح. دخل بافيل بافيلوفيتش الرواق، حيث يوجد بابان مفتوحان، التقى امرأة طويلة القامة وقوية البنية، فسألها عن بافيل بافيلوفيتش، أشارت إلى الباب الذي يسمع من ورائه بكاء

الطفلة. الوجه السميك الأحمر، لتلك المرأة البالغة من العمر أربعين سنة، كانت تظهر عليه علامات الاستنكار، حيث قالت بصوت منخفض، وهي تنزل السلم:

- انظر كيف يتسلى.

كان فيلتشانينوف سيطرق الباب، لكنه تراجع عن ذلك، وفتحه بشكل مفاجئ. في وسط الحجرة الصغيرة والمليئة بأثاث مصبوغ بشكل فظّ، كان يقف بافيل بافيلوفيتش نصف عار، بلا صدريه ولا سترة، بوجهه الأحمر وهو يصرخ، ويحرك يديه في الهواء، وربما كما يظهر لفيلتشانينوف، كان يقوم بضرب الطفلة. إنه يحاول إسكات طفلة في الثامنة، ترتدي ملابس فقيرة، لكن تبدو كآنسة بكسوتها القصيرة. يبدو أنها تعاني من أزمة عصبية، حيث تمدّ يدها نحو بافيل بافيلوفيتش، وهي تشهق كأنما تريد أن تحضنه، تقبِّله أو ترجوه. وفي لحظة ما، تبدّل كل شيء عند رؤية الغريب. صرخت الفتاة، ثم اتجهت كالسهم نحو الغرفة المجاورة، أما بافيل بافيلوفيتش وبعد لحظة ذهول، فقد ابتسم باسترخاء تام، تماماً كما فعل بالأمس عندما فتح له فيلتشانينوف الباب، وقال بصوت مرتفع:

- ألكسي إيفانوفيتش.. حقاً، أنا لم أنتظر... لكن... اجلس... هنا فوق هذه الأريكة، أو فوق هذه الكنبة، وأنا...

وسارع بارتداء سترته ناسياً الصدرية.

- لا تكلِّف نفسك، ابقَ كما أنت.

وجلس فيلتشانينوف فوق كرسي.

- لا... لا اسمح لي باحترام الرسميات... ها أنا الآن

أكثر استعداداً كما تقتضي الأصول، لكن لماذا جلست هناك؟ خذْ تلك الكنبة قرب المائدة، حقيقة أنا لم أكن أنتظر زيارتك.

جلس فوق كرسي من القشّ المفتول، ليس بالقرب من الزائر «المفاجئ»، لكن بوضعه بطريقة تجعله مقابلاً لفيلتشانينوف.

- لماذا لم تكن في انتظاري؟ لقد قلت بالأمس بأنني سآتي اليوم، وفي هذا الموعد بالضبط.

- اعتقدت أنك لن تجيء، وعندما أفَقْت، وتذكّرت كل ما جرى بيننا بالأمس، فقدتُ كلّ أمل في رؤيتك من جديد.

كان فيلتشانينوف قد تفحّص الغرفة بدقّة. كانت هناك فوضى عارمة، السرير لم يكن غطاءه مرتباً، الملابس كانت في كل مكان، مرمية بشكل عشوائي، فوق المائدة كانت هناك كؤوس بها بقايا قهوة، وفتات خبز وقنينة شمبانيا شبه فارغة بجوارها كأس. ألقى نظرة إلى الغرفة المجاورة، كانت الصغيرة صامتة دون حراك.

- كيف وصلت إلى هذه الحال؟ قال فيلتشانينوف وهو يشير إلى قنينة الشمبانيا.

- تلك مجرد بقايا.

- لقد تغيرت كثيراً.

- إنها العادات السيئة، منذ تلك اللحظة، أنا لا أكذب، لم أستطع التحكم في نفسي. . . لا تخف يا ألكسي، لا، لست الآن سكران، أنا لا أقوى على التفوّه بالسخافات كما بالأمس، لكن أقول لك الحقيقة: لو أن أحدهم منذ ستة أشهر فحسب قال لي

إنني سأصبح على هذه الحال، وأراني وجهي في المرآة، لما صدقته.

- إذن كنت مخموراً بالأمس.

- نعم، اعترف بافيل بافيلوفيتش بصوت خافت، وهو يخفض عينيه خجلاً، أنا لم أكن مخموراً بالضبط، لكني شربت بعض الكؤوس ساعات قبل ذلك. سأشرح لك. إني أصير سيئاً بعد السُّكر، عندما أستفيق أصبح شريراً، قاسياً، مجنوناً تقريباً، وهكذا تُصبح كآبتي أكثر حدّة، ربما هي التي تدفعني للسكر. فأصير قادراً على ارتكاب أفظع السخافات، وافتعال النزاعات، لا شك أنني بدوتُ لك بالأمس غريب الطباع.

- ألا تتذكر ذلك؟

- كيف إذن، إني أتذكر كل شيء.

- أرأيت، بافيل بافيلوفيتش، أنا فكرت أيضاً، ولا بد أن أقول لك إني كنت شيئاً ما قاسياً معك، أعترف بذلك، أنا لم أكن على ما يرام، هذا إضافة إلى كون زيارتك الليلية المفاجئة...

- نعم، ليلية. خفض بافيل بافيلوفيتش رأسه، وكأنه يتعجب من ذلك، ويوبِّخ نفسه.

- ما الذي دفع بي إلى ذلك، إذن؟ ليس هناك سبب في الدنيا يجعلني أدخل منزلك، ولو لم تفتح لي الباب بنفسك، لانصرفت. لقد سبق لي أن بحثتُ عنك منذ أسبوع تقريباً، ألكسي إيفانوفيتش، لكني لم أجدك، لكن من الممكن أن لا أكون قد عدت، فأنا لدي كبريائي أيضاً، يا ألكسي إيفانوفيتش، رغم أنني واعٍ بالحالة التي

أنت عليها، الآن... لقد التقينا في الشارع، وقلت لنفسي: «إذا لم يتعرف علي، إذا أشاح بوجهه عني... تسع سنوات مدة طويلة». لم أجرؤ على الحديث إليك، لكن بالأمس، وأنا قادم من الضاحية، لم أنتبه للساعة. الخطأ يعود لهذه (مشيراً إلى القنينة)، ولأحاسيسي، كان الأمر سخيفاً جداً، لو تعلَّق الأمر بشخص آخر غيرك، لفَقَد كلّ أمل، لكن أنت لما تذكرت الماضي، أتيت للقائي رغم ما حدث بيننا بالأمس.

كان فيلتشانينوف يستمع إليه بتأنٍّ، يظهر أن الرجل يعبِّر بصدق وبنوعٍ من الوقار، رغم ذلك لم يكن يصدقه.

- قلْ لي بافيل بافيلوفيتش، أنت لست وحدك هنا؟ من هي تلك الفتاة الصغيرة التي رأيتها، عندما دخلت الشقة؟

هز فيلتشانينوف حاجبيه، معبِّراً عن مفاجئته الكبيرة، لكن رغم ذلك ألقى نظرة واضحة.

- لمن هذه الطفلة؟ آه، إنها ليزا، قال وهو يبتسم بمرح.

- أية ليزا؟ همس فيلتشانينوف، وقد أحسَّ بشيء ما يرتعش بداخله. الإحساس كان مباغتاً. منذ قليل، عندما رأى ليزا وهو يهمّ بالدخول، أصيب بالاندهاش، لكن لم يكن لديه أي شعور مسبق، أي فكرة خاصة.

- إنها ليزا، ابنتنا. كرّر بافيل بافيلوفيتش مبتسماً.

- ابنتكم؟ لكن هل كان لناتاليا فاسيليفنا أطفال؟ تساءل فيلتشانينوف بخجل وتردُّد، وبصوت مكتوم تقريباً.

- كيف، إذن... آه، يا إلهي... حقاً لم يكن بإمكانك معرفة ذلك، لقد رزقنا الله الطفلة بعد سفرك.

تحرّك بافيل بافيلوفيتش فوق كرسيه، وكأنه وقع ضحية لشعور ما، شعور لطيف.

- لا أعلم بذلك، قال فيلتشانينوف وهو يبدو شاحب الوجه.

- فعلاً... فعلاً... مَن كان بإمكانه إخبارك بذلك؟ لا شك أنك تتذكر أننا فقدنا الأمل، المرحومة وأنا... وها هو الله رحمنا... آه كم قاسيت من أجل ذلك... الله وحده يعلم... لقد حدث ذلك سنة بعد رحيلك... لا، بل قُل أقل من سنة... أقل بكثير... إذا لم تخُنِّ الذاكرة، فأنت سافرت في شهر تشرين الأول/ أكتوبر أو تشرين الثاني/ نوفمبر.

- لقد سافرت في بداية أيلول/ سبتمبر، 12 أيلول/ سبتمبر أتذكر ذلك جيداً.

- في أيلول/ سبتمبر؟ أمتأكد من ذلك؟ وأنا الذي كنت أعتقد... قال بافيل بافيلوفيتش باستغراب كبير... إذا كان الأمر كذلك، فاسمح لي إذن. أنت ذهبت بتاريخ 12 أيلول/ سبتمبر، تشرين الأول/ أكتوبر، تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الأول/ ديسمبر، كانون الثاني/ يناير، شباط/ فبراير، آذار/ مارس، نيسان/ أبريل... ثمانية أشهر وبضعة أيام... لو كنت تعرف كيف أن المرحومة...

- قدِّمها لي، إذن... همس فيلتشانينوف بصوت متقطع.

فقاطعه بافيل بافيلوفيتش:

- بكل تأكيد. . . فوراً. . . سأقدِّمها لك فوراً.

وذهب بحيوية إلى غرفة ليزا. بعد مرور ثلاث أو ربما أربع دقائق، بالحجرة الصغيرة حيث سمع همساً سريعاً وخافتاً، وكان صوت ليزا بالكاد يسمع، «إنها ترجوه أن لا يجعلها تخرج»، استنتج فيلتشانينوف. وأخيراً ظهرا. قال بافيل بافيلوفيتش:

- ها هي إذن، إنها جدّ محرجة، خجولة وفخورة. . . صورة طبق الأصل للمرحومة.

كفَّت ليزا عن البكاء، وخفضت عينيها: كان أبوها ممسكاً بيدها. لقد كانت فتاة صغيرة، طويلة القامة، نحيفة وجميلة جداً، رفعت عينيها الزرقاوين الجميلتين، ونظرت إلى فيلتشانينوف، لكن بشكل غريب وغامض، ثم ما لبثت أن خفضتهما للأرض. كان لنظرتها تلك الصرامة التي تراها في أعين الأطفال، الذين يجدون أنفسهم وحيدين أمام شخص غريب، والذين يلجؤون إلى زاوية الحجرة، ومن هناك يراقبون الضيف الذي لم يسبق لهم أن رأوه، بحذر وجدية، لكن، ربما كانت هذه النظرة تحتوي على فكر غير طفولي، هذا ما كان يبدو لفيلتشانينوف. ها قد أحضر الأب الطفلة:

- هذا عمّك أحد معارف أمك، لقد كان صديقاً لنا. . . لا تخافي، مدّي له يدك.

انحنت الطفلة قليلاً، ومدّت له يدها في خجل.

- لم تكن ترغب ناتاليا فاسيليفنا تعليمها التحية، لقد علَّمتها أن تحني الرأس قليلاً، وتمدّ اليد على الطريقة الإنجليزية. شرح

بافيل بافيلوفيتش لفيلتشانينوف، وهو يراقبه بتأنٍّ. كان فيلتشانينوف يدرك أنه يراقبه، لكنه لم يفكِّر في مداراة تأثره، بقي جامداً في مكانه، وهو يمسك يد ليزا بيده، وينظر إليها باهتمام، لكن ليزا كانت جدّ منزعجة، لقد تركت يديها بيد الغريب، ولم تغادر عيناها أباها، حيث كانت تستمع بخوف لكلّ ما يقوله. لقد تعرَّف في الحين على العينين الزرقاوين الكبيرتين، لكن ما أذهله هو ذلك البياض الخارق، وتلك النعومة التي تميز لونها، إضافة إلى لون شعرها، هذه الصفات كانت ذات معنى كافٍ. وعلى العكس من ذلك، تذكّر استدارة وجهها وانحناءات شفتيها بناتاليا فاسيليفنا، بشكلٍ جلي.

كان بافيل بافيلوفيتش يحكي منذ لحظات شيئاً ما، على ما يظهر بنوع من الحرارة والإحساس، فيلتشانينوف لم يكن ليسمع شيئاً، لم يسمع سوى الجملة الأخيرة.

- لا يمكنك أن تتصور يا بافيل بافيلوفيتش، ما خلَّفته لدينا من فرحة هذه الهدية الإلهية، منذ ولادتها صارت هي كل شيء في حياتي، لقد كنت أقول لنفسي، إذا حرمني الله من السعادة ستبقى لي ليزا، أنا على الأقل متأكِّد من هذا الأمر.

- ناتاليا فاسيليفنا؟ قال فيلتشانينوف.

انقبض وجه بافيل بافيلوفيتش، ثم قال:

- نتاليا فاسيليفنا؟ أنت تعرفها جيداً أليس كذلك؟ لا شك أنك تتذكر أنها لا تحب إظهار أحاسيسها، فحتى على فراش الموت... تكلّمت... توترت، وصرخت بأنهم يريدون قتلها بهذه

الأدوية، وأنّ ما حلّ بها ليس سوى حمى بسيطة، وأن طبيبينا لا يفهمان شيئاً، وعندما سيحلّ كوش (أتتذكر ذلك الطبيب العسكري الكهل؟)، ستغادر سريرها خلال أسبوعين، أكثر من ذلك خمس ساعات قبل الاحتضار، تذكرت أن عليها بعد ثلاثة أسابيع أن تزور خالتها، عرابة ليزا، من أجل عيد ميلادها.

وفجأة نهض فيلتشانينوف، دون أن يترك يد ليزا. لقد ظهر له أن هناك نوعاً من العتاب في نظرة الطفلة لأبيها.

وسأله بنبرة غريبة:

- ليست مريضة؟

أجابه بافيل بافيلوفيتش، بقلق وحزن:

- لا أعتقد، لكن الأمور أخذت منحى آخر، إنها طفلة غريبة ومتوترة شيئاً ما، بعد وفاة أمها مرضت لمدة أسبوعين، وأصبحت ذات طبع هستيري. منذ لحظات، وعند دخولك الغرفة، كانت تبكي... أتسمعين ليزا، أتسمعين؟ لماذا كانت تبكي؟ لأنني هممتُ بالخروج، وتركها لوحدها، وهو ما يعني بالنسبة إليها أنني لا أحبها، كما كنت أيام المرحومة. هذا هو اللوم الذي توجِّهه إليّ. هذه هي الأوهام التي تظهر فجأة في عقل طفلة، كان من الأجدر بها أن تهتم بعرائسها، لكن ليس لديها أحد لتلعب معه.

- إذن أنتما وحيدان هنا.

- نعم، وحيدان... هناك امرأة تأتي لتنظيف البيت، مرة في اليوم.

- وتخرج لتتركها لوحدها؟

- ماذا تريدني أن أفعل؟ بالأمس، عندما خرجت، أغلقت عليها الباب بالمفتاح، ولهذا السبب بالضبط كانت تبكي، اليوم. لكن ما العمل؟ أحكم أنت بنفسك، منذ ثلاثة أيام نزلت لوحدها إلى الباحة، فرماها أحد الأطفال بحجارة، وأصيبت في الرأس. مرة أخرى كانت تبكي، وترجو الجميع أن يخبرها أين ذهبت. أتفهم؟ هذا ليس بالأمر الجيد، لكن أنا أيضاً طيب للغاية. أخرج لساعة، ولا أعود إلا في الغد صباحاً. هكذا فعلت البارحة ولحسن الحظ، قامت مالكة المنزل بفتح الباب وإخراجها، لقد أحضرت صانع المفاتيح من أجل ذلك. يا للعار. إنني أظهر كوحش... كل هذا لأنني أعاني من اضطراب كبير.

- أبي. قالت الصغيرة بخوف وقلق.

- ماذا قلت لك، منذ لحظة؟ لماذا تعودين للفعل نفسه من جديد؟

- لا، لن يتكرر هذا... لن يتكرر. قالت الفتاة مرعوبة، وهي تمدّ يدها نحو أبيها.

في هذه الأثناء تدخل فيلتشانينوف، بنبرة حازمة:

- لا يمكن أن يستمرّ الأمر على هذه الحال، فأنت رجل ثري، كيف إذن تقبل أن تعيش في هذا المكان، وضمن هذه الشروط؟

- نعم، لكننا سنرحل بعد أسبوع، لقد صرفنا الكثير من النقود، فرغم كوني ثرياً...

قاطعه فيلتشانينوف، وقد بدأ يفقد صبره شيئاً فشيئاً، وكان

لسان حاله يقول بشكل واضح: «لا فائدة من الحديث، أعرف كلّ ما تريد قوله، وأعرف الغرض من ذلك»:

- اسمع، لدي اقتراح: فأنت قلت إنك ستمكث لمدة أسبوع، أو ربما أسبوعين. أنا أعرف إحدى العائلات معرفة تجعلني أشعر وكأنني في بيتي، أعرفها منذ عشرين سنة، إنها عائلة بوجورلتسيف، مستشار سري، يمكن أن يساعدك في قضيتك. إنه وعائلته يسكنون البادية، حيث يملك منزلاً مريحاً. إنّ كلادفيا بيتروفنا بوجورلتسيف هي بمثابة أختي، إنها كأمي. لديهم ثمانية أطفال. دعني آخذ ليزا إليهم... حتى لا نضيع الوقت، إنهم سيستقبلونها بكلّ فرح، سيعاملونها وكأنها ابنتهم، طوال الوقت نعم، سيعاملونها وكأنها ابنتهم الحقيقية.

كانت قلة صبره بلا حدود، ولم يحاول حتى إخفائها. فقال بافيل بافيلوفيتش وهو يغيِّر قسمات وجهه، حيث لمح فيلتشانينوف بعينه نظرة ماكرة:

- هذا مستحيل.

- مستحيل. لماذا؟ لماذا؟

- لأنني لا يمكن أن أتخلى عن ابنتي بهذه السهولة، وبهذا الشكل المباغت. أعرف أني سأتركها مع صديق جادّ، لكني لا أعرف تلك العائلة، وبما أنها تنتمي إلى الطبقة الراقية، فلست أدري كيف ستقبل بها.

صرخ فيلتشانينوف بحنق:

- لكني قلت لك إن هؤلاء يستقبلونني وكأني فرد من العائلة،

ستكون كلادفيا في غاية السعادة، وهي تستقبل فتاة بتوصية مني. عليك اللعنة... أنت تعرف جيداً أن ما تقوله هذا مجرد ثرثرة. هذا واضح. ثم ضرب الأرض بقدميه.

- أقول هذا لأنني أخاف أن يظهر الأمر غريباً. فأنا سأكون مضطراً لزيارتها مرة أو مرتين... فماذا سيقولون إذن، إذا لم يروا الأب... خصوصاً أنها عائلة غنية؟

صرخ فيلتشانينوف:

- لكنها عائلة عادية... ليست غنية، وقلت لك إن لهم أطفالاً. الطفلة ستبعث من جديد... سأقدمك لهم من جديد إذا رغبت في ذلك، بل سيكون من الضروري أن تذهب لتشكرهم، سنزورهم كل يوم إذا أردت ذلك.

- رغم ذلك...

- عبث. أنت تُدرك ذلك. اسمع. ستأتي عندي هذا المساء، حيث سنقضي الليلة، وفي الغد نذهب سوياً في الصباح الباكر، لنصل إلى هناك في منتصف النهار.

- يا لك من محسن، أقضي الليل عندك... هذا جيد... أين يوجد منزلهم؟ قال بافيل بافيلوفيتش مُظهراً نوعاً من اللطف.

- بليسنوي.

- وهل ستكون ملابسها في المستوى، فالعائلة راقية رغم أنها تسكن بالبادية... وأنت تعرف قلب الأب.

- وما حاجتها إلى ملابس أخرى؟ إنها في حداد. فهل يمكنها

ارتداء أخرى؟ هي ملابس مناسبة قدر الإمكان. ثياب نظيفة ووشاح، هذا كل ما تحتاج إليه.

الثياب والوشاح كانا في حالة يرثى لها.

- ستغيِّر ملابسها في الحال. قال بافيل بافيلوفيتش مستعجلاً الأمر، سأحضر لها ملابس أخرى للتبديل، إنها في المصبنة عند ماريا سيسوفنا.

فقاطعه فيلتشانينوف قائلاً:

- إذن، عليك بإحضار العربة، بسرعة من فضلك.

لكن ظهر عائق مفاجئ. ثارت ليزا، لقد كانت تتابع المناقشة بهلع كبير، لو أن فيلتشانينوف رآها وهو يحاول إقناع بافيل بافيلوفيتش، للاحظ التشاؤم الذي كان يعبِّر عنه وجهها الصغير.

أعلنت بصوت خافت، لكن صارم:

- لن أذهب.

- أرأيت؟ أرأيت؟ إنها تشبه أمها.

- لا، أنا لست نسخة من أمي، لست نسخة من أمي. صرخت ليزا بغضب من فَقْد كلّ أمل، وهي تلوي يديها الصغيرتين، وكأنها تحتجّ أمام أبيها ضد هذا الاتهام المرعب.

- أبي. أبي. إذا تخليت عني، س...

فاتجهت فجأة، مفزوعة، نحو فيلتشانينوف:

- إذا أخذتني، س...

لكنها لم تقوَ على إتمام الجملة، أخذها بافيل بافيلوفيتش من

يدها، وجرها إلى الحجرة المجاورة، وهو لا يستطيع إخفاء غضبه الشديد. من جديد، سُمعتْ همسات وبكاء مكتوم. كان فيلتشانينوف يستعد لاقتحام الغرفة، عندما خرج بافيل بافيلوفيتش، وأعلن بابتسامة فضّة أن الصغيرة مستعدّة لمرافقته في الحال. حاول فيلتشانينوف أن لا ينظر إليه. وفجأة، دخلت ماريا سيسوفنا، إنها المرأة ذاتها التي التقاها في الممر. لقد وضعت الملابس في حقيبة جميلة وصغيرة، من أجل ليزا، وقالت لفيلتشانينوف:

- أنت الذي سيأخذ منا ليزا، أيها الأب الصغير؟ إنها طفلة لطيفة، فأنت تنقذها من الجحيم.

- ماذا تقولين، يا ماريا سيسوفنا؟ تمتَم بافيل بافيلوفيتش.

- ماذا؟ الجميع يعرف أن اسمي ماريا سيسوفنا. أليس هذا بجحيم؟ أليس من العار أن تتحدث بهذه الطريقة أمام طفلة ترتعب من كل شيء؟ . . . تريد عربة أيها الأب الصغير؟ تريد الذهاب لليسنوي أليس كذلك؟

- نعم، نعم.

- إذن، سفراً سعيداً.

خرجت ليزا شاحبة الوجه، وعينيها إلى الأرض، وأخذت الحقيبة الصغيرة دون أن تنظر إلى فيلتشانينوف. لقد تحكَّمت في نفسها ولم تتّجه نحو أبيها لتقبيله، كما فعلت منذ قليل، لم تُرِدْ النظر إليه، حتى وهي تودّعه. أما بافيل بافيلوفيتش فقد قبَّلها على جبينها، وداعب شعرها. زمَّت الفتاة شفتيها، وارتعد ذقنها، لكنها لم تنظر إليه. كان بافيل بافيلوفيتش شاحباً شيئاً ما، كانت يداه

ترتعشان. لقد لاحظ فيلتشانينوف ذلك، رغم أنه حاول أن لا ينظر إليه. لم يكن يرغب سوى في شيء واحد: الرحيل، وبسرعة. وفكر: «أنا لست مذنباً. لقد وقع ما كان سيقع». لقد نزلوا، ماريا سيسوفنا وليزا تعانقتا، وعندما ركبت العربة فقط رفعت ليزا عينيها اتجاه أبيها، وفجأة وهي تشبك يديها، أطلقت صرخة لو زادت دقيقة عن ذلك لقفزت من العربة، واتجهت نحوه، لكن الجياد انطلقت.

VI

النزوة الجديدة

سألها فيلتشانينوف مرعوباً:

- أتحسين بشيء؟ سأوقف العربة، وأحضر ماء.

ألقت نحوه نظرة عنيفة، كلها لوم، وسألته بصوتها المتقطع:

- إلى أين تأخذني؟

- إنها عائلة لطيفة يا ليزا، تسكن منزلاً جميلاً جداً، حيث يوجد الكثير من الأطفال الذين سيحبونك، إنهم لطاف إلى درجة... لا تغضبي مني، فأنا لا أريد سوى مصلحتك.

كم كان سيبدو غريباً بالنسبة إلى معارفه، لو رأوه على هذه الحال.

قالت ليزا، وهي تكظم شهيقها وتنظر إليه بعينيها الجميلتين اللتين يتطاير منهما الغضب:

- كم أنت... كم أنت... آه... كم أنت شرير.

- ليزا إنني....

- أنت شرير، شرير، شرير. قالت وهي تلوي يديها.

- ليزا لو تعرفين كم تُشعرينني باليأس.

سألته بسلطوية:

- هل صحيح أنه سيأتي غداً؟ هل صحيح؟

- نعم... نعم سأحضره أنا بنفسي، سأذهب وأحضره.

وهمست ليزا، وهي تخفض عينيها:

- لن يحضر، لن يفي بوعده.

- ليزا، هل يكرهك؟

- إنه لا يحبني.

- هل كان يؤذيك.

نظرت إليه ليزا بطريقة غامضة، وسكتت. أدارت وجهها من جديد، وغضَّت الطرف. حاول إقناعها، وحدَّثها بحماس حيث كان هو الآخر تحت تأثير نوع من الحمى. كانت ليزا تصغي إليه بحذر وعدوانية، رغم ذلك كانت تنصت إليه. لقد راقَهُ انتباهها حتى أنه شرح لها معنى أن يكون الإنسان سكّيراً. لقد كان يقول لها إنه يحبها، وسيهتم بوالدها. وأخيراً رفعت ليزا عينيها نحوه، ونظرت إليه بانتباه. فحَكى لها كيف تعرَّف على أمها، وسرعان ما لاحظ اهتمامها بحكايته عن أمها. وشيئاً فشيئاً بدأت تجيبه عن أسئلته، ولكن بحذر وكلمات متقطعة ونوع من العناد. ولكن عندما يتعلق الأمر بالأسئلة المهمة، فهي لا تعطي أية إجابة، حيث تصمت بشكل متعمَّد عندما يتعلق الأمر بأبيها. أثناء الحديث، وضع فيلتشانينوف يدها الصغيرة بيده، احتفظ بها ولم تسحبها. فالفتاة الصغيرة لم تلزم الصمت طوال الوقت، حيث أجابته أخيراً بشكل غامض، أنها في السابق كانت تكن حبّاً أكثر لأبيها، لأن

هذا الأخير كان يحبها أكثر من أمها، لكن أمها عند وفاتها، بعد أن غادر الجميع الغرفة وبقيتا لوحدهما، قبّلتها بقوة وهي تبكي. فهي الآن تحب أمها أكثر من أي شيء في العالم، حبها لها يزداد كل يوم أكثر فأكثر. كانت الصغيرة فخورة، لكن عندما انتبهت لكونها تحدّثت أكثر ممّا ينبغي، لجأت إلى الصمت المطبق من جديد، بل أكثر من ذلك، نظرت بكراهية لفيلتشانينوف الذي دفعها للحديث. عند نهاية السفر، هدأ غضبها تقريباً، لكنها بقيت غارقة في التفكير وقد بدت غامضة، متوحّشة وقاسية. يظهر أنها تتألم أقل لفكرة لقائها بناس غرباء، بمنزل لم يسبق لها أن زارته من قبل، هناك شيء آخر يؤلمها، لقد فهم فيلتشانينوف الأمر، لقد اكتشف أنها تشعر بالخجل اتجاهه، تشعر بالخجل من كون أبيها تركها بسهولة لشخص آخر، وكأنه يريد التخلص منها. «إنها مريضة، مريضة جداً، قد يكون ألمها كبيراً... آه السكير، الحقير، أنا أفهمك الآن»، قال لنفسه وهو يستعجل السائق. إنه يعقِد آمالاً كبيرة على هواء البادية، والحديقة، والأطفال، والتأثير الإيجابي للحياة الجديدة، و... بعد ذلك... ما سيحدث بعد ذلك، فدون شك سيكون مستقبلاً مشرقاً، مليئاً بالآمال.

على أية حال، هو متأكد من شيء واحد: لم يسبق له أن أحسّ بما يحسّه الآن، في هذه اللحظة ومدى الحياة. «هذا هو الهدف، هذه هي الحياة»، ردَّد بداخله بحماس. كانت الأفكار تتضارب في ذهنه، لكنه كان لا يتوقف عندها، ويتفادى التفاصيل بعناد كبير، فكل شيء كان واضحاً وصلباً.

كانت خطته العامة قائمة بذاتها، فبدا يحدث نفسه: «يجب أن أتحكّم في هذا الوضيع، سنستجمع قوانا، سيترك ليزا عند عائلة بوجورلتسيف لوقت قصير في البداية، مع تحديد مهلة، ثم سيرحل لوحده، وستبقى لي ليزا، هذا كل شيء، أليس هذا كل ما أريد؟ أليس هذا ما يريد هو أيضاً؟ وإلا لماذا كان يعذبها بذلك الشكل؟».

ها قد وصلا أخيراً فيلا بوجورلتسيف، فعلاً لقد كانت بموقع جيد جداً. ظهرت زمرة من الأطفال على عتبة المنزل، وهي تستقبلهم بضجيج لافت، لقد مضت مدة طويلة على زيارة فيلتشانينوف لهذا المنزل، كانت فرحة الأطفال عارمة، فهو شخص محبوب بهذا المكان، بحيث صاح الكبار قبل أن يترجَّل من العربة:

- وقضيتك؟ قضيتك؟

وما لبث أن تلقَّف الصغار هذه الجملة، وردَّدوها صارخين وضاحكين. لقد كان الجميع يمازحه بخصوص دعواه، لكن عندما رأوا ليزا أحاطوا بها، ثم صاروا يتفحّصونها بذلك الفضول الصامت والمتأني، الذي يميِّز الأطفال، فجاءت كلادفيا وزوجها حيث كان أول ما فعلاه هو السؤال بسخرية، عن قضيته.

كانت كلادفيا بيتروفنا في الثلاثين من العمر تقريباً، سمراء وقوية شيئاً ما، إضافة إلى كونها ما زالت جميلة، ووجهها نضر ومتورّد. أمّا زوجها فكان في الخمسين، رجل ذو ذكاء ماكر، لكنه لطيف قبل كل شيء.

كان فيلتشانينوف يحسّ «بأنه في بيته»، حسب تعبيره. وكان وراء ذلك سبب خاص، قبل عشرين عاماً كانت كلادفيا بيتروفنا على وشك الزواج بفيلتشانينوف، الذي لم يكن وقتها سوى صبي أو طالب. لقد كان حبهما الأول، هما الاثنان، حباً شديداً ومثيراً للسخرية وجميلاً، لكنها في آخر المطاف تزوّجت بوجورلتسيف. بعد خمس سنوات التقيا من جديد، وكانت صداقة صافية وهادئة. ما تبقّى من حبهما هو نوع من الحنان، ضوء خاص، ينير علاقة الصداقة التي تربط بينهما.

كانت ذكريات هذا الماضي نقية وبسيطة، بالنسبة إلى فيلتشانينوف. زِدْ على ذلك أنه كان متشبثاً بها، حتى أنها كانت تشكّل استثناء في حياته.

هنا، وسط هذه العائلة، كان بسيطاً وساذجاً وطيباً، كان يهتم بالأطفال، وكان سلوكه جدياً وصريحاً. أكثر من مرة أقسم لعائلة بوجورلتسيف، أنه طال الزمن أو قصر، سيأتي ليحطّ الرِّحال عندهم بشكل نهائي، لقد كان يفكّر بجدية في هذا المشروع.

لقد حكى لهم بالتفاصيل الكافية، كل ما يجب أن يعرفوه عن ليزا. أما الباقي، فيكفي أن يعبّر عن رغبة ما دون الدخول في التفاسير الطويلة. قبلت كلادفيا بيتروفنا «اليتيمة»، ووعدته بأن تقوم بكل ما في وسعها. تكلف الأطفال بليزا، وأخذوها كي تلعب معهم. بعد ساعة من النقاش «الحاد»، انتصر فيلتشانينوف. كان فريسة لقلّة صبر ملحوظة من طرف الجميع. غريب، لقد دام غيابه ثلاثة أسابيع، وها هو يرحل في غضون نصف ساعة، كان

يضحك، ويقسم أنه سيعود غداً. قيل له أنه يبدو متأثراً جداً، لكنه أمسك فجأة كلادفيا بيتروفنا من يدها، متذرِّعاً بأن هناك أمراً مهمّاً نسي أن يخبرها به، فأخذها إلى الغرفة المجاورة.

– أتذكرين ما سبق أن أخبرتك به لوحدك؟ إنه شيء يجهله حتى زوجك. إنها السنة التي قضيتها بـ T . . .

– نعم، لا يمكنني إلا أن أتذكرها جيداً، كنت تتحدث عن ذلك مراراً.

– لا ، لم أتحدث لأحد عن ذلك، لقد كنتُ أسرُّ لك به وحدك. لم يسبق لي أن سمّيت لك تلك المرأة، إنها زوجة ذلك التروسوتسكي. لقد ماتت، أما ليزا فهي ابنتها، إنها ابنتي.

– أمتأكد من ذلك؟ ألستَ مخطأ؟ سألته كلادفيا بتأثُّر.

– لا . . . لا . . . لم أخطئ بتاتاً. أجابها فيلتشانينوف بحماس بالغ.

وحكى لها باختصار بالغ وسرعة محمومة، كانت كلادفيا على علم بكل شيء، لكنها لا تعرف اسم المرأة. كان فيلتشانينوف يشعر برعب شديد إزاء فكرة أن يلتقي أحدهم بتروسوتسكي، ويقول عنه أنه، هو فيلتشانينوف، قد أحبّ هذه المرأة، التي لم يكشف عن اسمها حتى لكلادفيا بيتروفنا، صديقته الوحيدة.

– والأب، ألا يعرف شيئاً؟ سألته بعدما أتمّ حديثه.

– يعرف. . . وما يؤلمني بالضبط، هو أنني لم أفهم بعد كل شيء. إنه يعرف. . . يعرف لقد لاحظت ذلك بالأمس واليوم، لكن عليّ أن أعرف ما يعرفه بالتحديد، هذا هو ما يجعلني على عجلة

من أمري الآن، سيأتي هذا المساء، أنا لا أفهم الأمر جيداً، كيف أمكنه أن يعرف، إنه على علم بكلّ ما يهم باجاوتوف، هذا لا شك فيه، لكن بالنسبة إليّ أنت تعرفين كيف تنجح النساء في إقناع أزواجهن، حتى لو نزل ملاك من السماء، فإن الزوج لن يصدقه، بل سيصدّق زوجته، لا تحركي رأسك، لا تحكمي عليّ، لقد حاكمت نفسي منذ زمن بعيد. أترين؟ لقد كنت في بعض الأحيان أعتقد أنه يعرف كل شيء حتى أن تصرفاتي كانت تشي بكل شيء في حضوره. صدّقيني، أحسّ بالعار لأنني استقبلته بتلك الطريقة السوقية، سأحكي لك بالتفصيل، لقد زارني بالأمس بهدف أن يُفهِمني بأنه على علم بالإهانة التي تعرّض لها، ويعرف الشخص الذي أهانه أيضاً. هذا هو السبب الوحيد لزيارته البليدة ليلاً، وهو في تلك الحالة من السكر الطافح، لكنني أعتبر ذلك تصرّفاً طبيعياً. لقد جاء ليُشعرني بالحرج. لم أستطِع التحكم في أعصابي، لقد تصرفت بغباء. لقد فضحت نفسي بنفسي. لماذا جاءني في هذا الوقت بالذات، حيث كنت في قمة الغضب؟ لقد قلتها لك: إنه كان يعذّب ليزا... لقد كان يصبّ غضبه على طفلة، نعم لقد أصبح فظّاً، شريراً، إنه ليس سوى مهرج، رغم أنه في الماضي كان يبدو رجلاً شريفاً قدر المستطاع، عليك يا صديقتي أن تنظري إلى هذه الأشياء كمؤمنة، تعرفين يا عزيزتي، يا صديقتي؟ أريد أن أغير سلوكي اتجاهه بشكل كامل، أريد أن أكون لطيفاً معه، وسيكون عملي على ما أعتقد، عملاً جيداً نحوه. اسمعي، سأبوح لك بشيء آخر. في إحدى المرات، احتجتُ إلى أربعة آلاف روبل، فأقرضني

إياها في الحال، دون حاجة إلى عقد. إسداء هذه الخدمة جعله يشعر بالسعادة، لقد قبلت ذلك المال، أسمعتِ؟ قبلت ذلك المال من يده كصديق.

قالت كلادفيا بيتروفنا بقلق:

- لكن كن حذراً، أنت مضطرب للغاية، أخشى أن يصيبك مكروه. إن ليزا ابنتي، لكن ما زالت هناك الكثير من الأشياء في حاجة إلى توضيح. كن حذراً، عليك أن تتصرف بتكتُّم، فأنت عندما تكون سعيداً ومتحمساً، قد تبوح بالكثير. أضافت ذلك، وهي تبتسم.

خرج الجميع ليودّع فيلتشانينوف، أما الأطفال فقد رافقوا ليزا، التي كانت تلعب معهم، إلى الحديقة. إنهم الآن ينظرون إليها بدهشة أكثر من السابق. لقد بدا على ليزا نوع من النفور عندما قبّلها فيلتشانينوف أمام الجميع، وودَّعها وهو يَعِدُها بالعودة في الغد، رفقة أبيها. حتى آخر لحظة لم تنطِق بأية كلمة، وهي تنظر إليه، لكن فجأة أمسكَت بكمّه، وأبعدته عن الآخرين، ونظرت إليه بتوسل، إنها تريد أن تقول شيئاً ما، حيث أخذته إلى الغرفة المجاورة.

- ما الذي يحدث يا ليزا؟ سألها بصوت ناعم ومقنع، لكنها كانت تنظر إليه بخوف، وأخذته إلى زاوية الغرفة، وكأنها تريد أن لا يراها أحد.

- ما الذي يحدث يا ليزا؟ ما الأمر؟

لقد لازمت الصمت، وامتنعت عن الكلام، ونظرت بعينيها

الزرقاوين، وكانت تقاسيم وجهها لا تعبِّر سوى عن رعب شديد.

- سيشنق نفسه، همست وكأنها تهذي.

- من سيشنق نفسه؟ سألها فيلتشانينوف مرعوباً.

- هو... هو... يريد أن يلفّ عنقه بالحبل. قالت بصوت متسرِّع ولاهث، لقد رأيته بنفسي، يريد أن يشنق نفسه، لقد قالها لي، قالها لي منذ مدة، كان يريد أن يشنق نفسه، لقد قالها لي، قالها لي منذ مدة، كان يريد فعل ذلك... لقد رأيته...

- هذا غير ممكن. همس فيلتشانينوف مضطرباً.

وفجأة شرعت في تقبيل يده، وهي تبكي، كانت الشهقات تخنقها، كانت ترجوه، تتوسل إليه، لكنه لم يستطع فهم كلماتها المتقطعة. لقد تذكّر فيما بعد، النظرة المرعوبة لتلك الطفلة المعذّبة، عيناها المليئتان بالخوف الشديد، نظراتها المليئة بالآمال ما زالت تطارده حتى في أحلامه.

«هل من الممكن أن تحبّه إلى هذه الدرجة؟ سأل نفسه بنوع من الغيرة والرغبة، وهو يعود أدراجه إلى المدينة، أحياناً كانت تقول أنها تحب أمها أكثر. ربما قد تكون الكراهية وليس الحب. «سيشنق نفسه». لماذا تقول ذلك؟ هل ذلك الأبله يستطيع شنق نفسه؟ يجب أن أستطلع الأمر، يجب أن أجد حلاً لهذه المسألة في أسرع وقت... حل نهائي».

VII

الزوج يتبادلان القبل

كانت له رغبة لا تقاوم من أجل معرفة ما يجري. «في بعض الأحيان، أحسّ بالاضطراب، وأحياناً أخرى لا وقت لديّ للانتباه لذلك، فكَّر في هذا وهو يتذكر لقاءه الأول مع ليزا، لكن عليّ الآن أن أعرف كل شيء».

قرر لتسريع الأمور، مدفوعاً بنفاد صبره، الذهاب عند تروسوتسكي، لكنه سرعان ما تراجع: «لا، من الأفضل أن يأتي هو إلى هنا، وفي انتظار ذلك سأهتم بسرعة، بهذه الأمور الملعونة».

ذهب بسرعة محمومة لإتمام أموره، لكنه أحسّ هذه المرة بأنه كان شارد الذهن وغير قادر على العمل هذا اليوم. عند الساعة الخامسة، وهو ذاهب لتناول العشاء، راودته فكرة غريبة لم يسبق له أن فكر فيها من قبل: «ألا يمكن أن يكون كلّ ما يقوم به، من تدخل بنفسه في محاكمته، والجري بالمحاكم، ومطاردة محاميه الذي على ما يظهر يتفاداه، ألا يمكن لكل هذا أن يؤخر قضيته؟». كانت هذه الفكرة تضحكه: «لو خطرت لي هذه الفكرة بالأمس، لكنت قد تأسفت كثيراً»، قالها لنفسه وهو مسرور هذه المرة.

رغم سروره، قل صبره وصار أكثر فأكثر سهواً، أصبح حالماً، ذهنه الحزين يحاول التشبث بأشياء متعددة دون التركيز على ما هو مهم.

«أنا في حاجة إلى هذا الرجل، عليّ أن أفك شفرته وبعد ذلك سنقرّر، إنها مواجهة حقيقية»، قال أخيراً محدِّثاً نفسه.

على الساعة السادسة، عندما دخل المنزل لم يجد بافيل بافيلوفيتش بالكل، وهو ما فاجأه في البداية، ثم مرّ من الغضب إلى الاندهاش، ومن الاندهاش إلى الحزن، ثم من الحزن إلى الخوف. «الله وحده يعلم، الله يعلم كيف ستنتهي الأمور»، ردَّد هذه الجملة وهو يقطع الغرفة طولاً وعرضاً أحياناً، وأحياناً أخرى يتمدَّد فوق الأريكة، دون أن يغفل النظر إلى ساعة الحائط. كانت الساعة تشير إلى التاسعة تقريباً، عندما وصل بافيل بافيلوفيتش أخيراً. «إذا كان هذا الرجل محتالاً، فهو لم يعُد يجد وسيلة أفضل من هذه لإثارة أعصابي، فأنا الآن فقدت بوصلتي بشكل كامل»، لكن وهو يفكر بهذه الطريقة، أحسّ بارتياح تامّ وفرح غامر، إجابة عن سؤاله الملقى بنبرة رائقة: «ما سبب كلّ هذا التأخُّر؟». رسم بافيل بافيلوفيتش ابتسامة ماكرة، وجلس بنوع من عدم الاكتراث، خلافاً لما فعل بالأمس، وبحركة غير مهذَّبة رمى بالقبّعة ذات الثوب الأسود فوق الكرسي. لاحظ فيلتشانينوف هذا التصرف في الحال، وقرر أن يبقى يقظاً.

بهدوء ودون كلام زائد، ودون اضطراب، حدّثه عن سفره مع ليزا، وكيف تمّ استقبالهما، وشرح له أهمية إقامتها هناك بالنسبة

إلى حالتها الصحية، وشيئاً فشيئاً وكأنه نسي ليزا، بدأ في الحديث بشكلٍ خاص عن عائلة بوجورلتسيف، تحدّث عن طيبتهم وعن المكانة الاجتماعية التي يحظى بها بوجورلتسيف وعن أشياء أخرى شبيهة بذلك. كان بافيل بافيلوفيتش يستمع إليه بلامبالاة، يبتسم في بعض الأحيان بمكر واستهجان، يرميه بين الفينة والأخرى بنظرات مخادعة.

- أنت شخص جدّ متحمس. قال له أخيراً مع ابتسامة خبيثة.

- وأنت تبدو سيئ الطباع اليوم، لاحظ فيلتشانينوف بغضب.

- ولماذا لا أكون شريراً كالجميع؟ صاح بافيل بافيلوفيتش وهو يقفز من مكانه، وكأنه ينتظر الفرصة لكي يفجر غضبه فقط. فأجابه فيلتشانينوف بابتسامة ساخرة:

- كما تشاء، اعتقدت أنّه أصابك مكروه ما.

- نعم، لقد حدث لي شيء ما. صاح بافيل بافيلوفيتش، وكأنه يتباهى بذلك.

- وماذا بعد؟

وتأخر بافيل بافيلوفيتش في الردّ حيث قال:

- نعم، إنه صديقنا ستيفان ميخايلوفتش بوكايتوف الذي يتصرّف بحماقة، ذلك الشاب الأنيق من بطرسبرغ، ذلك الرجل المهذب الذي ينتمي إلى الطبقة الراقية.

- هل رفضوا استقبالك مرة أخرى؟

- بالعكس، لقد استقبلوني، تركوني أدخل المنزل لأول مرة،

حيث تمكنت من تأمّل ملامح وجهه، لكنها لم تكن سوى ملامح رجل ميت.

- كيف؟ هل مات بوكايتوف؟ سأله فيلتشانينوف باندهاش غير مبرر.

- نعم، صديقي القديم والمخلص مات بالأمس عند الظهيرة، أنا الذي كنت أجهل كل شيء، ربما مات في اللحظة التي جئت فيها لأطمئن عليه، سيُدفن غداً، إنه الآن في التابوت المزين بالثوب المخملي الأحمر ذي الشارات المذهبة. الحمى الشديدة كانت هي السبب في وفاته... نعم لقد سمحوا لي بالدخول، وبتأمل قسمات وجهه، لقد قلت إنه كان يعتبرني صديقه الحقيقي، تركوني أدخل... لكن انظُر قليلاً ما فعله بي هذا الصديق الذي أعرفه منذ سنوات، ربما لهذا السبب فقط تحمّلت عناء السفر إلى بطرسبرغ.

- لكن لماذا أنت قلق إلى هذه الدرجة، فهو لم يمُت عنوة؟

- أقول هذا لأنني أشعر بالكثير من الحزن لفقدانه... أتعرف ما كان يشكله بالنسبة إليّ؟ وفجأة قام بافيل بافيلوفيتش بحركة غير منتظرة، رفع أصبعين فوق جبهته الصلعاء كقرنين، وأصدر ضحكة صامتة وطويلة، بقي على هذه الحال ضاحكاً والقرنين فوق جبهته لمدة نصف دقيقة، وهو ينظر مباشرة في عيني فيلتشانينوف بوقاحة بارزة. هذا الأخير تجمَّد من شدة الدهشة، كمن رأى شبحاً مُخيفاً، لكن دهشته تلك لم تدُم سوى برهة من الزمن، حيث بزغت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهادئة وتقريباً وقحة.

- ماذا يعني هذا؟ سأله بكسل وهو يجترّ الكلمات.

- إنهما قرنان، أجابه بافيل بافيلوفيتش، وهو يزيل أخيراً أصبعيه بعنف.

- قرنان؟

- نعم، إنها قروني التي أمتلكها بجدّ... وابتسم بافيل بافيلوفيتش بخبث من جديد. سكت الاثنين.

- أنت شخص شجاع، قال فيلتشانينوف.

- لماذا؟ لأنني أريتك القرنين؟ ألكسي إيفانوفيتش، من الأفضل أن تقدِّم لي شيئاً ما... فأنا استقبلتك، وأطعمتك لمدة سنة بكاملها، أحضر لي قنينة، فأنا أشعر بالعطش، لقد جفّ حلقي.

- بكلّ فرح، كان عليك أن تقول ذلك منذ البداية، ماذا تريد أن تشرب؟

- لا تقُل ماذا تريد، بل ماذا نريد، علينا أن نشرب نحن الاثنين، أليس كذلك؟ قال بافيل بافيلوفيتش، وهو يتفحّصه بنوع من التحدي، لكن بشيء من القلق الغريب أيضاً.

- شمبانيا؟

- ماذا غير ذلك؟ فنحن لم نصل بعد إلى الفودكا.

نهض فيلتشانينوف ببطء، وقرع الجرس لمافرا، وأمرها بإحضار اللازم.

- على شرف لقائنا السعيد بعد تسع سنوات من الفراق. قال بافيل بافيلوفيتش محاوِلاً مداعبته، لكن دون جدوى.

- أنت الآن صديقي الحقيقي، رحل ميخايلوفيتش بوكايتوف، كما قال الشاعر:

رحل «الباتروكل» الكبير

لكن عاش «ترسيت» الشرير

فأشار لنفسه، عندما نطق بكلمة «ترسيت».

«أيها الحيوان اللئيم، وضِّح الأمر بسرعة، فأنا لا أحب التلميحات الغامضة»، قال فيلتشانينوف محدِّثاً نفسه. كان يغلي من شدة الغضب، مع أنه كان يحاول أن يتمالك نفسه منذ مدة، فقال:

- قل لي، إذا كنت تكيل كل هذه الاتهامات لستيفان ميخايلوفيتش، فستكون سعيداً لوفاة عدوك؟ ما الذي يقلقك، إذن؟

- لماذا سأكون سعيداً؟ عن أيّ سعادة تتحدث؟

- أنا أحكم عليك انطلاقاً ممّا يظهر عليك من إحساس.

- ها... ها... في هذه الحالة أنت مخطئ بخصوص إحساسي، لقد قالها أحد الحكماء: «عدوّ ميت شيء جيد، عدوّ حي ذلك أحسن».

- لكنك رأيته حياً لمدة خمس سنوات، وكنت تراه كل يوم، وأعتقد أنه كان لديك الوقت الكافي لتأمله، بطريقة وقحة وشريرة. قال فيلتشانينوف.

- وبعد؟ هل كنت أعرف ذلك، انفجر بافيل بافيلوفيتش فجأة، بحماس زائد وكأنه تلقى السؤال الذي كان ينتظره منذ زمان، مَن أنا في نظرك يا ألكسي إيفانوفيتش؟

لمعت عيناه بتعبير جديد غير منتظر، وحوّلت بشكل كامل

ملامح وجهه، الذي شوّهته تكشيرة خبيثة وشريرة.

- كيف يمكن ألّا تعرف أي شيء؟ نطق فيلتشانينوف باضطراب، وهو في قمة الاندهاش.

- آه، أتتصور أني أعلم ذلك؟ آه، يا سلالة جوبتير، الإنسان بالنسبة إليكم مجرد كلب، تحكمون على الجميع من منطلق طبعكم البئيس، خذوا مني هذه. وضرب بقبضته على الطاولة بغضب شديد، لكن حركته هذه سرعان ما أرعبته، وجعلته ينظر إليه بخوف. نهض فيلتشانينوف.

- اسمع بافيل بافيلوفيتش، كل هذا لا يهمني في شيء، فلنتّفق على ذلك، علمت أم لم تعلم، الأمر عندي سيان. إذا كنت لا تعلم، فهذا شرف لك على أية حال، رغم أنه... زِدْ على ذلك أني لا أفهم لماذا اخترتني كرجل ثقة.

- أنا لم أضع عيني عليك أنت... لا تغضب، لست أنت المقصود، همس بافيلوفيتش وهو يخفض عينيه نحو الأرض.

ودخلت مارفا حاملة الشمبانيا.

- ها هي الشمبانيا، صاح بافيل بافيلوفيتش، مُظهِراً فرحه بهذا التمويه، احضري بعض الكؤوس أيتها الأم الصغيرة، جيد هذا كل ما يلزمنا. هل القنينة مفتوحة؟ رائع أيتها المخلوقة الجميلة، جيد جداً، يمكنك الانصراف. لمّا استعاد شجاعته، عاد ينظر إلى فيلتشانينوف بجرأة:

- اعترف إذن، قالها وهو يقهقه، إن كل هذا يحيِّرك بفزع كبير، كل هذا بعيد عن أن يجعلك لا مبالٍ بشكل مطلق، كما قلت

منذ قليل، ستكون نادماً إذا نهضت اللحظة، وانصرفت دون أن أشرح لك أي شيء.

- حقاً، لن أكون نادماً أبداً.

«أنت كذاب»، كلمة ظهرت من خلال ابتسامة بافيل بافيلوفيتش.

- إذن فلنشرب.

وملأ الكؤوس، ثم كرَّرها وهو يرفع كأسه:

- فلنشرب. في صحة صديقنا المسكين ستيفان ميخايلوفيتش، الذي أخذه الرب إلى جواره.

- أنا لا أقبل نخباً كهذه، ولن أشرب. قال فيلتشانينوف، وهو يضع كأسه.

- لماذا إذن؟ إنها نخب جميلة وصغيرة.

- اسمع، لماذا دخلت إلى هنا، ألم تكن مخموراً؟

- بالفعل، لقد شربت قليلاً، لماذا هذا السؤال؟

- لا لشيء محدد، لكن بدا لي بالأمس وهذا الصباح بالخصوص، أنك تأسَّفت بصدق لوفاة ناتاليا فاسيليفنا.

- ومَن قال لك إنّ أسفي أقلّ صدقاً الآن؟

ونهض فيلتشانينوف فجأة، كما فعل منذ قليل.

- ليس هذا ما أقصد، لكن عليك أن تسلِّم بأنه يمكن أن تكون مخطئاً بخصوص ستيفان ميخايلوفيتش، وهذا أمر خطير.

ابتسم بافيل بافيلوفيتش بمَكر، وهو يغمز بعينيه.

- آه، تريد أن تعرف كيف نجحت في معرفة حقيقة ستيفان ميخايلوفيتش؟

احمرّ وجه فيلتشانينوف.

- أكرِّر لك إن الأمر لا يهمني في شيء. «ماذا لو رميت به إلى الخارج، هو وقنينته؟»، فكر فيلتشانينوف بغضب، ووجهه يزداد احمراراً.

قال بافيل بافيلوفيتش، وكأنه يريد تشجيعه:

- هذا لا يهم، سأشرح لك كيف علمت كل شيء، سأشبع رغبتك الجامحة، لأنك رجل يشتعل حماساً يا ألكسي إيفانوفيتش، أنت رجل متحمِّس إلى أقصى الحدود، لكن أعطيني سيجارة، لأني منذ شهر آذار/ مارس...

- خُذ.

- نعم، منذ شهر آذار/ مارس سقطت في الرذيلة. هكذا حصل كل شيء، اسمع، السلّ، تعرف ذلك جيداً يا صديقي العزيز، السلّ مرض غريب، يحدث كثيراً أن يموت المريض دون أن يكون له أدنى شك، في أنه في اليوم الموالي لن يصبح على قيد الحياة، قبل وفاتها بخمس ساعات، كانت ناتاليا فاسيليفنا تستعد لزيارة خالتها، التي تقطن على بعد أربعين فرسخاً من المنزل، من جهة ثانية أنت تعرف تلك العادة المرضية الموجودة لدى الكثير من الرجال والنساء، والتي تقتضي بأن يحتفظوا بمراسلاتهم الغرامية، بينما الأجدر بهم هو أن يلقوا بها في النار، أليس كذلك؟ لكن بالعكس، إنهم يحتفظون بكلّ قصاصة ورق بصناديقهم أو حقائبهم، يرقِّمونها حسب السنوات والتواريخ، ربما هذا يعزيهم، لست أدري، من المحتمل أن يكون ذلك بهدف تجديد الذكريات

الجميلة، لكن خمس ساعات قبل وفاتها، وهي تستعدّ لزيارة عمتها، لم تفكّر ناتاليا فاسيليفنا في نهايتها، حتى عندما حلت تلك اللحظة الحاسمة، عندما كانت في انتظار الدكتور كوش، فحدث أن توفيت ناتاليا فاسيليفنا بشكل مفاجئ، وبقيت العلبة الصغيرة الموشاة بالصَّدف والفضة فوق مكتبها، إنها علبة جميلة بمفتاح صغير وجذاب، إرث عائلي عن جدّتها، نعم، بفضل هذه العلبة انفضح كل شيء، دون استثناء، يوم بيوم، سنة بسنة، منذ عشرين سنة. وبما أن ستيفان ميخايلوفيتش كان مغرماً بالأدب، حيث حدث أن أرسل لهيئة تحرير إحدى المجلات الأدبية حكاية جدّ مؤثرة، كانت العلبة تحتوي على مائة رسالة من تأليفه (وهو ما يمكن أن يشكِّل قصة)، إنه نتاج خمس سنوات من العمل. بعض الرسائل كانت تحمل تعاليق على الهامش، بيد ناتاليا فاسيليفنا. هل تعتقد أن هذا يروق لزوج مثلي؟

فكر فيلتشانينوف للحظة، ثم تذكّر أنه لم يسبق له أبداً أن كتب رسالة إلى نتاليا فاسيليفنا، أي رسالة أو حتى رسالة صغيرة. صحيح أنه كتب مرتين من بطرسبرغ، لكن الرسالتين كانتا باسم الزوجين، كما اتفق على ذلك، فهو لم يُجب حتى على الرسالة الأخيرة، التي بعثت بها ناتاليا فاسيليفنا، والتي تخبره فيها بانتهاء العلاقة بينهما.

لما أنهى بافيل بافيلوفيتش حكايته، سكت لمدة دقيقة بكاملها، وهو يبتسم بإصرار باحثاً عن جواب:

- لماذا لم تُجِبْني عن سؤالي الصغير؟ سأله أخيراً بألم ظاهر.

- أي سؤال؟

- بخصوص الزوج الذي يكتشف علبة من هذا النوع.

- آه... هذا لا يهمني في شيء... أجابه فيلتشانينوف بغضب، ونهض حيث بدأ يقطع الغرفة طولاً وعرضاً.

- أراهن على أنك تقول في نفسك الآن: «يا له من خنزير، يعرض أمامي فضيحته والعار الذي لحقه». ها... ها... ها أنت تُظهر اشمئزازك.

- أنا لا أفكر بتاتاً فيما تقول... بالعكس، أنا جدّ حزين لموت عدوّك، إضافة إلى ذلك فأنت شربت كثيراً. أنا لا أرى شيئاً، أنا أتفهم جيداً حاجتك إلى بقاء بوكايتوف على قيد الحياة، أنا أحترم ألمك ولكن..

- لماذا أنا في حاجة إلى بوكايتوف في نظرك؟

- هذا شأنك.

- أراهن على أنك تفكِّر في مبارزة.

- إلى الجحيم. صرخ فيلتشانينوف، وهو يتحكّم في أعصابه بصعوبة، افترض أن أي شخص شريف في حالة كهذه، لا يسمح لنفسه بثرثرة سخيفة وتكشيرة بليدة وبإيحاءات مقزّزة، لا تحمل سوى على الحطّ من مستعملها، بل يتصرف بوضوح وصراحة كرجل شريف.

- ها... ها... إذن، أنا لست رجلاً شريفاً؟

- مرة أخرى ذلك شأنك، لكن لماذا أنت في حاجة إلى بوكايتوف؟

- لا شيء، سوى لتأمُّل ذلك الصديق العزيز، كنا سنفتح قنينة خمر، وكنا سنشرب معاً بلطف.

- قد يرفض عرضك هذا.

- لماذا؟ فالشهامة تقتضي ذلك. ألم تشرب معي؟ ما الذي يميِّزه عنك؟

- أنا لم أشرب.

- من أين لك بهذه الكبرياء المفاجئة؟

وفجأة، انفجر فيلتشانينوف ضاحكاً بغضب وعصبية.

- آه، أنت شخص شرس، كنت أعتقد أنك لست سوى «زوج أبدي»، لا أقلّ ولا أكثر.

- ما هو الزوج الأبدي؟ ماذا تقصد بذلك؟ سأله بافيل بافيلوفيتش، وهو يمدّ أذنه.

- هو نوع من الأزواج. الشّرح قد يطول، عليك بالذهاب، لقد حان الوقت لكي تذهب، يبدو عليك الملل.

- لماذا قلت «شرس»؟

- قلت إنك «شرس»، قلت ذلك فقط لأمازحك.

- ما هو «الشخص الشرس»؟ اشرح لي أرجوك يا ألكسي إيفانوفيتش، بالله عليك، باسم المسيح.

- هذا يكفي، كفى، حسم فيلتشانينوف الأمر، وهو في فورة غضب، لقد حان وقت الرحيل، هيا، اذهب.

- لا، هذا غير كافٍ، صرخ بافيل بافيلوفيتش قافزاً من مكانه،

رغم أنني أضايقك، فإني لن أغادر بهذا الشكل، لأني قبل أن أخرج أريد أن أشرب برفقتك، فهذا لا يكفيني الآن.

- بافيل بافيلوفيتش، ستغرب عن وجهي نعم أم لا؟

- سأفعل، لكن قبل ذلك فلنشرب، قلت بوضوح إنك لا تريد الشرب معي، وأنا أريد بالضبط أن تشرب معي.

لم يعُد يكشّر، ولا يسخر، هناك شيء ما قد تغيّر فجأة بداخله، إضافة إلى كون شكله ونبرات صوته تبدّلا إلى درجة أذهلت فيلتشانينوف.

- ألكسي إيفانوفيتش فلنشرب، لا ترفض لي هذا الطلب، واصل بافيل بافيلوفيتش وهو يشدّ على يده، متفحصاً وجهه بشكل غريب، بطبيعة الحال فالمهم بالنسبة إليه لم يكُن هو كأس الخمر.

- ربما... نعم... اشرب. تمتم فيلتشانينوف. ولكنه خمر رديء، خُذْ كأسك.

دقّا قدحيهما، وشربا.

- إذن، ما دام الأمر هكذا...

وضع بافيل بافيلوفيتش يده على جبهته، وبقي على هذا الوضع بعض الوقت، وبدا لفيلتشانينوف أنه سيقول كلمته الأخيرة، لكن بافيل بافيلوفيتش لم يقُل شيئاً. كان ينظر إلى فيلتشانينوف بهدوء مع ابتسامة عريضة، ماكرة ومليئة بالإيحاءات.

- ماذا تريد مني، أيها السكير اللعين؟ أتسخر مني؟ صرخ فيلتشانينوف مغتاظاً، وهو يضرب الأرض بقدميه.

- لا تصرخ... لا تصرخ... لماذا الصراخ؟ قال الآخر

بسرعة، وهو يهدِّئه، أنا لا أسخر منك، أتعرف الآن مكانتك عندي؟

وفجأة، أمسك بيده وقبّلها، بقي فيلتشانينوف جامداً من شدّة الاندهاش.

- هذا ما تمثِّله بالنسبة إلي حالياً، الآن يمكنني أن أذهب إلى الجحيم.

- انتظر. انتظر. صرخ فيلتشانينوف. نسيت أن أقول لك. . .

التفت إليه بافيل بافيلوفيتش الذي كان قد وصل قرب الباب، قال فيلتشانينوف بتردُّد وسرعة، وهو يحمرّ ويغضّ النظر:

- من الضروري أن تذهب عند عائلة بوجورلتسيف لتتعرَّف عليهم وتشكرهم، هذا أمر ضروري.

- نعم. . . طبعاً، أفهم ذلك جيداً. قال بافيل بافيلوفيتش بتسرُّع غير عادي، مبرِزاً بحركة قصيرة بأنه لم يكُن من الضروري تذكيره بذلك.

- إضافة إلى ذلك، فليزا تنتظرك بفارغ الصبر، لقد وعدتها.

- ليزا، عاد بافيل بافيلوفيتش أدراجه، أتعرف ما تمثِّله ليزا بالنسبة إلي؟ إنها هي هي كما كانت، صرخ فجأة بغضب شديد، كل هذا سنتركه لما بعد، أما الآن يا ألكسي إيفانوفيتش لم يعُد يكفيني الشراب برفقتك، يلزمني إشباع رغبة أخرى.

وضع قبعته فوق الطاولة، ونظر إلى فيلتشانينوف كما في السابق، وهو يلهث قليلاً.

- قبِّلني، ألكسي إيفانوفيتش، قال بشكل مباغت.

- أنت ثمل. صرخ الآخر متراجعاً.

- نعم، لكن قبِّلني. ألم أقبِّل يدك قبل قليل؟

بقي ألكسي إيفانوفيتش صامتاً لبعض الوقت، وكأنه تلقى ضربة عصا على رأسه، ثم فجأة انحنى على بافيل بافيلوفيتش الذي مال قريباً منه، وقبَّله فوق الفم الذي تفوح منه رائحة الخمر القوية، لم يكن متأكداً بأنه قبله.

- والآن... الآن. صرخ بافيل بافيلوفيتش في حالة من الثمالة، وعيناه متَّقدتان. اسمع ما أريد قوله لك، لقد فكرت منذ قليل «كيف، أهو أيضاً؟ لكن إذا كان ذلك صحيحاً، مَن عليّ أن أصدّق الآن؟».

وفجأة، خر بافيل بافيلوفيتش باكياً.

- أتفهم أي صديق أنت بالنسبة إلي، اليوم؟

وفرَّ هارباً، حاملاً قبعته في يده. بقي فيلتشانينوف بلا حراك لبضع دقائق وسط الغرفة، كما كان الأمر أثناء الزيارة الأولى لبافيل بافيلوفيتش.

«آه، إنه مجرد مهرج سكران، لا أقل ولا أكثر»، وقام بحركة استهزاء «لا أقل ولا أكثر»، ردَّد بقوة، خلع ملابسه، ثم نام.

VIII

ليزا مريضة

في صباح الغد، كان فيلتشانينوف يقطع الغرفة طولاً وعرضاً، ويرتشف جرعات صغيرة من القهوة، وهو يدخن، بانتظار بافيل بافيلوفيتش الذي وعَدَ بأن يحضر في الموعد من أجل زيارة أسرة بوجورلتسيف. . . لقد كان لديه الإحساس الواضح بأنه يشبه ذلك الرجل الذي يستيقظ صباحاً، ويتذكّر باستمرار أنه تلقى صفعة بالأمس.

«إنه يفهم جيداً الوضعية، وسينتقم مني باستعمال ليزا»، فكر في الأمر، وأصيب بالذعر، وفجأة ظهرت أمام عينيه الصور الناعمة والحزينة لتلك الطفلة المسكينة. ولما تصوّر بأنه سيرى ليزا بعد ساعتين، بدأ قلبه في الخفقان بسرعة أكثر. «لا مجال للنقاش، قال هذا خاتماً الأمر بحماس، هناك توجد حياتي ومغزى وجودي. ماذا تعني تلك الصفعات وتلك الذكريات؟ ما الذي فعلته بحياتي اليوم؟ لم تكن حياتي سوى فوضى وحزن. الآن ستسير الأمور بشكل مختلف تماماً»، لكن رغم حماسه، فقد داهمته الانشغالات أكثر فأكثر. «سيؤلمني باستعماله ليزا، هذا بديهي، سيعذب ليزا

أيضاً، هكذا سينتقم من كل شيء. لن أقبل تكرار الحماقات التي قام بها بالأمس». قال ذلك وقد احمرّ وجهه.

انتظر طويلاً حتى الثانية عشرة والنصف، وبدأ قلقه يتصاعد. إن التفكير في كون صاحبه لن يحضر فقط ليكرِّر تكتيك الأمس، جعله يفقد أعصابه. «إنه يعرف أنني مرتبط به، كيف سأقابل ليزا من دونه؟»، أخيراً لم يستطِع الصمود، فعند الساعة الواحدة اتّجه إلى بوكروف، بالفندق قيل له إن بافيل بافيلوفيتش لم يقضِ الليلة في غرفته، وإنه قد عاد في الصباح، ولم يمكث سوى ربع ساعة، ثم ذهب من جديد. استمع فيلتشانينوف إلى شروح الخادمة، وهو يقف أمام باب غرفة بافيل بافيلوفيتش، ويدير المقبض محاولاً فتحه. عندما انتهت من شرحها، ابتعد عن الباب وطلب منها إرشاده إلى مكان تواجد ماريا سيسويفنا، لكن هذه الأخيرة لمّا علمت بوجوده، حضرت من تلقاء نفسها. لقد كانت امرأة جيدة، امرأة ذات أحاسيس نبيلة، كما عبَّر عن ذلك فيلتشانينوف فيما بعد، لما أشار إلى حديثه مع كلادفيا بيتروفنا. سألها بإيجاز حول موضوع «الصغيرة»، ثم شرعت ماريا سيسويفنا في الحديث عن كل ما تعرفه عن بافيل بافيلوفيتش.

حسب قولها: لولا الطفلة لكانت طردته منذ مدة. لقد سبق أن طردوه من الفندق بسبب حياته الفوضوية، أليس عيباً أن يُحضر النساء إلى بيته ليلاً في حضور طفلة تفهم كل شيء؟ لقد كان يصرخ في وجهها: «ستصبح أمّك إن أردتِ»، صدقني إن شئت، لقد كانت

الطفلة تبصق في وجهه، وكان يصرخ: «أنت لست ابنتي، أنت لقيطة».

وصرخ فيلتشانينوف مذعوراً: «ماذا تقولين؟»

- لقد سمعت ذلك بنفسي، صحيح أنه كان سكران وغاضباً، لكن لا يمكن قول مثل تلك الأشياء أمام طفلة، إنها لا تزال صغيرة، لكنها تفهم كل شيء، كانت تبكي، وتتألم. منذ أيام حدث شيء فظيع، ذات مساء جاء عميد شرطة، واكترى غرفة بالفندق، لكن في الصباح شنق نفسه. لقد سرق الخزينة وخسرها في القمار حسب ما يُقال. هرع الجميع إلى المكان، لم يكن بافيل بافيلوفيتش بالمنزل، لم يكن أحد لمراقبة الصغيرة، لقد كانت بالممر وسط الحشد تنظر بذهول إلى الشخص المشنوق. أخذتها بسرعة، بدأت ترتعش، اسودَّ لونها، وما إن دخلت البيت حتى سقطت أرضاً متشنجة، عانيت كثيراً قبل أن تستعيد وعيها. ومنذ ذلك الحين أصبحت مريضة. لما عاد وعلم بالأمر قام بقرصها في جميع أنحاء جسدها. فقد اعتاد على ذلك بدل ضربها، ثم سكب له كأساً من الخمر، وبدأ في إخافتها: «سأشنق نفسي أنا أيضاً بهذا الحبل، بحبل الستار، وستكونين أنت السبب»، كان يقول ذلك، ويشرع في صنع المشنقة أمامها، وكانت هي تصرخ كالحمقاء، وتحيطه بيديها الصغيرتين: لن أفعل ذلك أبداً، لن أفعل «كانت مثيرة للشفقة».

كان فيلتشانينوف ينتظر أشياء أغرب من ذلك، لكن هذه الحكاية أرعبته إلى درجة أنه لا يستطيع تصديق أن كل هذا قد

حدث. وأفاضت سيسويفنا في الحديث: «في إحدى المرات، لو لم تكن ماريا هنا، لرمت الصغيرة نفسها من النافذة».

خرج فيلتشانينوف من الفندق متعثِّراً كالسكير، وهو يردِّد: «سأقتله ككلب، سأضربه بعصا على رأسه»، استقل عربة، واتجه عند عائلة بوجورلتسيف. قبل الخروج من المدينة، اضطرّت العربة للوقوف بتقاطع الطرق، قرب قنطرة صغيرة حيث يمرّ موكب جنائزي كبير. كانت جنبات القنطرة مزدحمة، حيث توقَّفت العربات، كما كان حشد كبير من الناس هناك لمشاهدة الموكب. كانت مظاهر البذخ والثراء بادية على هذا الموكب، حيث كانت العربات تشكل طابوراً طويلاً. فجأة، وبإحدى العربات ظهر لفيلتشانينوف وجه بافيل بافيلوفيتش، إنه يكاد لا يصدق عينيه، لو لم يقُم بافيل بافيلوفيتش بإخراج رأسه من النافذة، وتحيّته بحركة من يده، والابتسامة تعلو محيّاه. طبعاً لقد كان فرحاً بهذا اللقاء. قفز فيلتشانينوف من العربة، ورغم الازدحام ورجال الشرطة، تسلَّل حتى باب العربة التي كانت قد وصلت إلى القنطرة، كان بافيل بافيلوفيتش لوحده.

- ما الذي حدث لك؟ صرخ فيلتشانينوف، لماذا لم تأتِ؟ لماذا أنت هنا؟

- أقوم بالواجب الأخير، لا تصرخ، لا تصرخ، أقوم بالواجب الأخير، قال بافيل بافيلوفيتش وهو يغمز بعينيه، مع ضحكة ماكرة. أرافق جثمان صديقي إلى مثواه الأخير.

- عبث، كل هذا عبث أيها السكير، يا لك من أبله، صرخ

فيلتشانينوف من جديد بحيرة وذهول، انزل حالاً، تعالَ معي في الحال.

- لا يمكن، إن الواجب. . .

- سأجبرك بالقوة، صرخ فيلتشانينوف.

- وأنا سأصرخ. . . سأصرخ. كان بافيل بافيلوفيتش يضحك بفرح طفولي، وكأنّ الأمر يتعلق بمزحة، لكن رغم ذلك كان يحتمي بزاوية العربة.

- انتبه، سيدوسونك.

صاح رجل الشرطة.

فعلاً، لقد مرّت إحدى العربات التي لا تنتمي إلى الموكب، وزرعت الفوضى وسط الحشد، اضطرّ فيلتشانينوف إلى تجنّبها حيث رمت به عربات أخرى بعيداً، بصق من شدة الغضب، وعاد إلى عربته.

«على أية حال فالوضع الذي كان عليه لا يسمح لي باصطحابه معي»، فكَّر في ذلك بحيرة وأسف.

عندما حدَّث كلادفيا بيتروفنا عمّا حكته له ماريا سيسويفنا، وعن لقاءه مع بافيل بافيلوفيتش، بدت مهمومة، وقالت: «إني أخاف عليك، يجب أن تقطع علاقتك به، ومن الأحسن في أقرب وقت ممكن».

صرخ فيلتشانينوف بشدّة:

- إنه ليس سوى سكير، لا أقل ولا أكثر، وكيف لي أن أقطع علاقتي به، وهناك ليزا؟ فكري في ليزا.

لكن ليزا كانت نائمة، مريضة، لقد أصابتها الحمى بالأمس ليلاً، وهم في انتظار وصول طبيب شهير، أرسلوا لاستدعائه هذا الصباح. كل هذا أربك فيلتشانينوف بشكل كبير. فأخذته كلادفيا بيتروفنا إلى جانب الطفلة المريضة.

قالت كلادفيا بيتروفنا، وهي تتوقف عند باب غرفة ليزا: «بالأمس راقبتها بانتباه، إنها طفلة فخورة ومنطوية على نفسها، إنها تشعر بالعار لتواجدها بيننا، لإحساسها بكونها متخلّى عنها من طرف والدها. هذا هو مرضها في نظري».

– متخلى عنها؟ لماذا؟ لماذا تعتقدين أنه «متخلى عنها»؟

– مجرد تركها عند أناس غرباء، رفقة شخص... تقريباً غريب، أو كانت له علاقة به.

– لكن أنا من أحضَرَها إلى هنا وبالقوة، ولا أرى أن...

– آه يا إلهي، لست أنا التي تعتقد ذلك. إنها ليزا، وفي رأيي إنه لن يحضر أبداً.

لم تفاجأ ليزا وهي ترى فيلتشانينوف لوحده، علت وجهها ابتسامة حزينة، ثم أدارت رأسها الصغير، الذي كان يلتهب من شدّة الحمى، إلى الحائط. لم تتجاوب مع مواساته المحتشمة، ولا مع وعوده الحارة بإحضار أبيها في الغد. عندما خرج من الغرفة انتابته نوبة من البكاء.

في المساء، وصل الطبيب، ولمّا فحص المريضة، أفزع الجميع بكلماته الأولى، حيث لاحظ أنه من الخطأ عدم إخطاره بالأمر مبكراً، ولمّا أخبروه أن الأعراض لم تظهر سوى بالأمس

مساء، لم يشأ تصديق الأمر، فأعلن أخيراً: «كل شي مرتبط بالطريقة التي ستقضي بها هذه الليلة».

بعد أن أعطى تعليماته، انصرف واعداً بأنه سيَحضر بالغد. كان فيلتشانينوف يريد قضاء الليلة عند عائلة بوجورلتسيف، لكن كلادفيا بيتروفنا بنفسها ألحّت عليه ليحاول إحضار «ذلك الوحش»، فقال فيلتشانينوف: «هذه المرة سأحضره، ولو اقتضى الأمر تكبيله». فكرة تكبيل بافيل بافيلوفيتش وإحضاره، صارت هاجسه الأساسي. «لم أعُد أحسّ بالذنب تجاهه»، قال بغضب لكلادفيا بيتروفنا، وهو يودّعها وأضاف: «أتنكر لكل الكلمات العاطفية والجبانة التي نطقت بها في هذا المكان».

كانت ليزا ممدّدة، عيناها مغلقتان، يظهر أنها نائمة، عندما انحنى فيلتشانينوف اتجاهها باحتراس، لكي يقبِّل على الأقل أطراف فستانها، فتحت عينيها فجأة، وكأنها تنتظره، وهمست: «خذني معك».

كان رجاء لطيفاً، حزيناً، خالياً من غضب الأمس، لكن كان من الواضح أنها تعرف أنّ طلبها بعيد المنال.

وما إن حاول فيلتشانينوف، وهو في قمة يأسه، أن يقنعها باستحالة الأمر، حتى أغلقت عينيها في صمت، لم تنطق بأدنى كلمة، وكأنها لا تسمعه، ولا تراه.

لما وصل المدينة، لم يكن بافيل بافيلوفيتش قد عاد بعد، انتظره فيلتشانينوف لمدة ساعة كاملة، وهو يقطع الممر ذهاباً وإياباً بصبر مليء بالألم... أخيراً أقنعته ماريا سيسويفنا بأنّ بافيل

بافيلوفيتش لن يعود حتى الفجر. «إذن، سأعود أنا أيضاً عند الفجر»، قال فيلتشانينوف، وعاد إلى المنزل وهو يستشيط غضباً.

لكن كم كانت دهشته كبيرة، ففي الوقت الذي كان يهم فيه الدخول إلى بيته، علم من مافرا أن زائر الأمس ينتظره منذ العاشرة.

- لقد شرب السيد الشاي، وأرسلني من جديد لشراء النبيذ، لقد أعطاني ورقة من فئة خمس روبيات.

IX

رؤيا

جلس بافيل بافيلوفيتش في وضعية جدّ مريحة. لقد شغل كرسي البارحة نفسه، مدخّناً سيجارته، حيث كان يسكب كأسه الأخيرة من شراب الشمبانيا. كان يوجد بجانبه فوق الطاولة، إبريق شاي وكأس نصف فارغة، بدا الرضا التام يشعّ من وجهه الأحمر، لقد أزال سترته واحتفظ بصدريته فقط.

- اسمح لي صديقي المخلص، قال بتعجُّب عندما رأى فيلتشانينوف، وهرع لارتداء سترته. لقد أزلتها لأتمتع أكثر بلذّة هذه اللحظة.

اقترب فيلتشانينوف مهدِّداً.

- هل أنت ثمل تماماً؟ هل يمكنني التحدّث معك؟

تردَّد فيلتشانينوف للحظة:

- لا، ليس تماماً، لقد شربت لذكرى الفقيدة، لكن... ليس تماماً.

- هل أنت في حالة تمكّنك من فهمي؟

- هذا ما جئت من أجله بالضبط، جئت لكي أفهمك.

- إذن سأبدأ بالقول بأنك شخص حقير. صاح فيلتشانينوف بصوت مخنوق.

- إذا بدأت بهذه الطريقة، إلى ماذا ستنتهي الأمور؟

حاول بافيل بافيلوفيتش الاحتجاج، وهو مرعوب بشكل كبير، لكن فيلتشانينوف استمر في الصراخ دون الإنصات إليه.

- ابنتك تموت، إنها مريضة، ألم تتخلى عنها؟ نعم أم لا؟

- هل يمكن أن تموت؟

- إنها مريضة، مريضة جداً، مريضة بشكل خطير.

- إنها مجرد أزمة بسيطة.

- لا تقُل هذه الحماقات، إنها في خطر وعليك بزيارتها ولمجرد..

- لكي أقدّم لهم الشكر على حسن استقبالهم لها، أفهم ذلك جيداً، ألكسي إيفانوفيتش، يا صديقي العزيز الممتاز. وفجأة أمسك بيد فيلتشانينوف بين يديه، وصرَّح بنبرة حساسة وباكية، كأنه يطلب منه الصفح. ألكسي إيفانوفيتش لا تصرخ، لا تصرخ، إذا متّ، إذا اختفيت في الحال، سكران بنهر النيفا، فما قيمة ذلك في الظروف الحالية؟ أمّا بخصوص السيد بوجورلتسيف، فسيكون لنا ما يكفي من الوقت لزيارته.

تحكَّم فيلتشانينوف في نفسه، وهدأت أعصابه، وقال بصرامة:

- أنت ثمل، ولا أفهم ما تريد قوله. أنا مستعد لإعطائك جميع التوضيحات اللازمة، وسأكون سعيداً بإنهاء هذا الأمر، بل

إنني ذهبت. . . لكن قبل كل شيء، اعلم أني اتخذت جميع احتياطاتي، ستقضي الليلة عندي، وغداً صباحاً سآخذك إلى هناك، لن أتركك. قال صارخاً. سأكبِّلك، وأحملك. هل تناسبك هذه الأريكة؟ وأشار وهو يلهث إلى الأريكة العريضة والمريحة، المقابلة لتلك التي ينام عليها هو بنفسه.

- سأنام في أي مكان. . .

- لا ، ليس في أي مكان، خذ الملاءة والغطاء والوسادة.

كان فيلتشانينوف يخرج هذه الأشياء بسرعة من الدولاب، ويرمي بها بسرعة لبافيل بافيلوفيتش، الذي يمدّ يديه مستسلماً.

- رتِّب فراشك في الحال، هيا، رتبه.

بقي بافيل بافيلوفيتش واقفاً للحظة وسط الغرفة، ويداه محمّلتان، كان يظهر عليه التردُّد حيث ارتسمت على وجهه ابتسامة مخمور، لكن عندما كرَّر فيلتشانينوف الأمر بصوت غاضب، دفع الطاولة، وبدأ في تمديد الغطاء وهو جدّ متعب، اقترب منه فيلتشانينوف لمساعدته، الاستسلام والرعب الباديان على صديقه، جعلاه يحسّ بالرضا إلى حدٍّ ما.

- أفرغ كأسك، واخلدْ إلى النوم، قال بنبرة آمرة. لقد أحسّ بأنه من المستحيل أن يتحدّث بشكل آخر. أأنتَ الذي أرسل لإحضار الخمر؟

- نعم. . . أنا. . . الخمر. . . كنت أعرف أنك لن تقبل شراءه.

- من الجيد أن تعرف ذلك، لكن يجب أن تعلم شيئاً آخر

أيضاً. أخبرك مرة أخرى أنني اتخذت قراري، لن أقبل حركاتك الغريبة، لن أقبل بقبلاتك التي تفوح خمراً.

- أفهم ذلك، أفهم أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا مرة واحدة، مرة واحدة فقط... وابتسم بافيل بافيلوفيتش بمكر.

عندما سمع فيلتشانينوف هذا الجواب، توقّف فجأة أمام بافيل بافيلوفيتش، بعدما كان يقطع الغرفة طولاً وعرضاً، وقال بنبرة احتفالية:

- بافيل بافيلوفيتش، تكلّم بصراحة، أنت ذكي، أعترف لك بهذا من جديد، لكن أؤكد لك أنك على خطأ، تكلم بصراحة، وتصرَّف بوضوح، وأنا أعدك وعد شرف بأني سأجيب عن أسئلتك كلها.

أطلق بافيل بافيلوفيتش ابتسامته الطويلة الماكرة من جديد، وهو ما جعل فيلتشانينوف يصرخ غاضباً:

- انتظر، لا تلعب معي، أنا أقرأ ما بداخلك وكأنك كتاب مفتوح، أكرِّر: أنا على استعداد للإجابة عن جميع أسئلتك، أعدك بذلك، على استعداد لتحقيق جميع رغباتك أيضاً، بل تحقيق حتى المستحيل منها، آهٍ كم أتمنى أن تفهمني. قال بافيل:

- بما أنك لطيف جداً، سأقول لك بأني مهتم جدّاً بما قلته بخصوص «الشخص الشرس».

قام فيلتشانينوف بحركة استياء، وشرع في المشي بسرعة أكبر داخل الغرفة.

- لا، يا ألكسي إيفانوفيتش. لا تفقد صبرك، لأنني مهتم جداً

بهذا الأمر، بل لقد أتيت إلى هنا لأتأكد... لساني ثقيل شيئاً ما لكن اعذرني... لقد قرأت شيئاً من هذا القبيل في إحدى المجلات، مقالة نقدية حول الشخص «الشرس». والشخص «المسالم»، لقد تذكرت ذلك هذا الصباح، لكني نسيت الموضوع، وفي الحقيقة لم أفهم شيئاً. والآن، أريد أن أوضح شيئاً، المرحوم ستيفان ميخايلوفتش باجاوتوف إلى أي نوع من البشر كان ينتمي؟ هل إلى النوع «الشرير» أم «المسالم»؟

لازم فيلتشانينوف الصمت، وواصل المشي، ثم صرخ بغضب، وهو يتوقف بشكل مفاجئ.

- الرجل «الشرس» هو ذلك الذي من المفترض أن يكون قد وضع السمّ في كأس باجاوتوف، عندما شرب الشمبانيا للاحتفال بـ«لقائهما السعيد»، كما فعلت معي بالأمس، لكن شخصاً من هذا النوع لن يذهب إلى حد مرافقته إلى المقبرة، كما فعلت أنت منذ قليل مدفوعاً بسبب خفيّ وخسيس ومنحطّ، من أجل التهريج فقط.

أجاب بافيل بافيلوفيتش:

- لم يكن ليذهب، صحيح، لكنك تعاملني بطريقة مذلّة.

لكن فيلتشانينوف واصل الصراخ بغضب شديد، دون الإنصات إليه.

- الرجل الشرس ليس ذلك الذي يختلق قصة خيالية مذهلة، يقضي وقته في حساب ما له من حقوق، ويقتات من مهانته، يتباكى، يقوم بحركات غريبة، يلعب دور البهلوان، يرتمي على أعناق الناس، وفي الأخير يكتشف أنه ضيع وقته في اقتراف

الحماقات. . . هل صحيح أنك حاولت شنق نفسك؟ هل هذا صحيح؟

- من الممكن. تلك فكرة راودتني. لا أتذكر ذلك، لكن أن أسكب السمّ فذلك لا يناسب شخصاً مثلي، أنا موظف محترم، وأكثر من ذلك أملك ثروة لا بأس بها.

- إضافة إلى أن هناك الأشغال الشاقة.

- نعم، هذا الإزعاج من الممكن أن يحدث أيضاً، بالرغم من أنه الآن أصبحت المحاكم تمنح بسهولة ظروف التخفيف. . . أريد أن أحكي لك شيئاً ألكسي إيفانوفيتش، حكاية صغيرة ومسلية، لقد تذكّرتها وأنا في العربة، قلت منذ لحظة «يرتمي على أعناق الناس»، لا شك أنك تتذكر سيمون بيتروفيتش ليفزوف. لقد جاء إلى T. . . عندما كنت توجد بها، أخوه الأصغر الذي يعتبر أيضاً كأحد الشبان الأنيقين بمجتمع بطرسبرغ، كان موظفاً عند حاكم مدينة F. . . وكانت له خصال رائعة. حدث يوماً أنْ تشاجر مع العقيد لوبنكو، بحضور بعض السيدات ومن ضمنهن حبيبته، فشعر بالإهانة، لكنه ابتلعها وسكت. وبعد مدة، تقدّم لوبنكو من تلك المرأة، وطلبها للزواج. تخيَّل أن هذا ليفزوف أصبح الصديق الحميم للوبنكو، بل أكثر من ذلك طلب أن يصبح هو غلام الشرف يوم زواجه، وحمل التاج فوق رأسه أثناء الحفل. عند انتهاء كل شيء، اقترب من لوبنكو ليهنئه، ويقبله وهو في أبهى حلة، معطّراً ومصفَّف الشعر وأمام الجميع وبحضور الحاكم، أمام المجتمع الراقي قام بتسديد طعنة سكين لبطن لوبنكو، الذي سقط أرضاً. إنه

غلام الشرف الذي طعنه. يا للعار، هذا ليس سوى القليل، الأقبح من ذلك أنه بعد فعلته تلك، اتجه ليفزوف نحو المحيطين به، وقال: «آه، ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟»، وبدأ يشهق، ويرتعش، ويعانق الناس، يعانق حتى السيدات. «آه، ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟». كان الأمر مضحكا جداً، وكان لوبنكو مثيراً للشفقة، لكنه شُفِي بعد ذلك.

- أنا لا أفهم الهدف من هذه الحكاية. قال فيلتشانينوف بصرامة وهو يقطّب حاجبيه.

- فقط، بسبب الطعنة. قال بافيل بافيلوفيتش، وهو يضحك في صمت. من البديهي أنه لم يكن رجلاً شرساً، لكنه مجرد زبالة. لقد أنساه الرعب كلّ آداب السلوك، وصار يعانق السيدات بحضور الحاكم، رغم ذلك فقد بلغ هدفه، لقد طعنه بالسكين في بطنه، هذا فقط ما كنت أريد أن أحكي لك.

- اذهب إلى الجحيم، صرخ فجأة فيلتشانينوف، وقد تغيَّر صوته تماماً، وكأن شيئاً ما انكسر بداخله. إلى الجحيم أنت وإيحاءاتك الدنيئة وأفكارك الوسخة الملتوية. أتعتقد أنك تخيفني؟ أنت لست قادراً سوى على تعذيب طفلة، جبان، جبان. صرخ بغضب شديد، وهو يلهث.

قفز بافيل بافيلوفيتش، طار سكره فجأة، ارتعشت شفتاه.

- أأنت الذي يناديني بالجبان؟ ألكسي إيفانوفيتش أنت تسميني أنا جبان؟

لكن فيلتشانينوف تدارك الأمر:

- أنا على استعداد لتقديم الاعتذار، أجابه بعد صمت وتفكير، لكن شريطة أن تتصرف بوضوح.

- أنا لو كنت مكانك، ألكسي إيفانوفيتش، لاعتذرت دون شرط.

- وليكن إذن، قال فيلتشانينوف بعد صمت. أعتذر، لكن قد تتفق معي يا بافيل بافيلوفيتش، بأنه بعد الذي حصل لم أعُد مديناً لك بشيء، ليس فقط بخصوص ما فعلته منذ لحظة، ولكن بخصوص كل شيء.

- لا بأس، ما لنا وهذه الحسابات؟

ابتسم بافيل بافيلوفيتش، وعينيه للأرض.

- هذا أحسن. إذا كان الأمر كذلك فهذا أحسن، اشرب كأسك ثم نَمْ، لأنني لن أتركك تغادر.

- نعم الشراب. بدا بافيل بافيلوفيتش مرتبكاً، واقترب من الطاولة، لكنه رأى أنه من واجبه إفراغ الكأس المملوء منذ مدة.

لقد شرب كثيراً دون شك، فيده ترتعش، لقد رشّ الأرضية وقميصه والصدرية، رغم ذلك فقد شرب حتى آخر قطرة، وكأنه لا يمكنه ترك أي شيء، ثم ذهب مستسلماً ليُزيل ملابسه قرب السرير، فسأله فجأة:

- أليس من الأفضل ألا أبيت عندك؟

- لا ، هذا ليس الأفضل، أجابه بافيل بافيلوفيتش دون أن ينظر إليه، وهو يقطع الغرفة طولاً وعرضاً.

نزع بافيل بافيلوفيتش ملابسه، ثم تمدَّد. بعد ربع ساعة، تمدد فيلتشانينوف بدوره، وأطفأ الشمعة.

وجد صعوبة في النوم، هناك شيء جديد قد ظهر، شيء يربكه، كان قلقاً وخجولاً من ذلك، لقد بدأ النوم يغالبه، وإذا بضجيج خفيف يوقظه. نظر بسرعة في اتجاه سرير بافيل بافيلوفيتش، كانت الغرفة مظلمة (الستائر كانت مسدولة بالكامل)، لكن بدا له أن بافيل بافيلوفيتش لم يكن ممدداً، بل جالساً فوق السرير.

- ما بك؟ سأله فيلتشانينوف.

- هناك خيال، أجابه بافيل بافيلوفيتش بعد لحظة بصوت يكاد يكون مسموعاً.

- ماذا؟ أي خيال؟

- هناك بتلك الغرفة أمام الباب.

- خيال مَن؟ سأله فيلتشانينوف بعد لحظات.

- خيال ناتاليا فاسيليفنا.

وضع فيلتشانينوف رجليه فوق السجاد، ثم نظر نحو الغرفة المجاورة، التي كان بابها مفتوحاً دائماً. لم يكن لهذه الغرف ستائر وإنما فقط شمسية بيضاء، لذا كانت الرؤيا أكثر وضوحاً.

- ليس هناك شيء، أنت فقط ثمل، نَمْ إذن. قال فيلتشانينوف.

عاد للنوم وهو يلتفّ في غطاءه. لم يقل بافيل بافيلوفيتش شيئاً حيث تمدَّد هو أيضاً.

- هل سبق لك أن رأيت هذا الخيال؟ سأله فجأة فيلتشانينوف بعد مرور عشر دقائق.

- نعم، يظهر لي أنني رأيتها في إحدى المرات، أجابه بافيل بافيلوفيتش بعد لحظات بصوت خافت، ثم ساد الصمت من جديد.

لن يستطيع فيلتشانينوف أن يؤكد إن كان قد نام أم لا، لكن بعد مرور ساعة تقلب فجأة. هل أيقظه ضجيج ما؟ لكن ظهر له أن هناك شيئاً ما يقترب منه، شيئاً أبيض ينسل بغموض من الظلام، وكان قد وصل وسط الغرفة. جلس فيلتشانينوف فوق السرير، محدّقاً في الظلام المحيط به.

- هل هذا أنت يا بافيل بافيلوفيتش؟ سأل بعد دقائق بصوت خافت، تردَّد صداه وسط الصمت ممّا خلق لديه إحساساً غريباً. لا جواب، لكن ليس هناك أدنى شك، شخص غريب يقف وسط الغرفة.

- أهذا أنت يا بافيل بافيلوفيتش؟ كرَّر بصوت مرتفع إلى درجة أنه حتى ولو كان بافيل بافيلوفيتش نائماً لكان استيقظ وأجابه.

لم يُجِبه أحد، لكن يبدو له أن ذلك الشيء الأبيض، الذي لا يكاد يميزه، بدأ يقترب أكثر. وحدث شيء غريب. راوده إحساس بانقطاع شيء ما بداخله، وصرخ بقوة بصوت يخنقه الغضب:

- أيها السكير البهلوان، أتعتقد أنك تخيفني، سأدير وجهي للحائط، سألف وجهي في الغطاء، ولن أتحرك طوال الليل لكي أظهر لك كم أحتقرك، حتى ولو بقيت هناك حتى الصباح. سأبصق عليك.

وبصق فعلاً بغضب شديد نحو ما يعتقد أنه بافيل بافيلوفيتش، ثم استدار نحو الحائط، غطى رأسه، فتجمّد كلياً في تلك الوضعية. ساد صمت رهيب. هل بدأ الشبح يقترب منه، أم بقي دائماً في المكان نفسه؟ لم يكن بإمكان فيلتشانينوف معرفة ذلك، لكن قلبه كان يدقّ، يدقّ، يدقّ. . . بعد مرور خمس دقائق على الأقل، وعلى بعد خطوتين منه، سمع صوتاً ضعيفاً وشاكياً، إنه بافيل بافيلوفيتش:

- لقد نهضت يا ألكسي إيفانوفيتش لكي أبحث (وسمى شيئاً ضرورياً)، لم أجده قرب سريري وأردتُ. . . دون إحداث ضجيج. . . لأرى إن كان موجوداً قرب سريرك.

- لماذا لم تجبني عندما صرخت؟ سأله فيلتشانينوف بصوت متقطع، بعد نصف دقيقة من الصمت.

- خفت. . . لقد صرخت بقوة إلى درجة. . . أنك أخفتني.

- هناك على اليسار، في الزاوية، قرب الباب، بالدولاب الصغير، أشعل شمعة.

- لست في حاجة إلى شمعة. قال فيلتشانينوف وهو يتجه نحو الدولاب الصغير. سامحني على الإزعاج يا ألكسي إيفانوفيتش، لقد أحسستُ فجأة بأنني سكران. .

لكن فيلتشانينوف لم يُجِبه قط، كان ممدداً ووجهه إلى الحائط، وبقي على هذا الوضع طوال الليل، دون أن يستدير ولو مرة واحدة. هل كان يريد أن يفي بوعده ويظهر له أنه يحتقره؟ هو نفسه لا يفهم ما يحس به، كانت أعصابه متوترة جداً حتى إنه كان

يهذي ولم يستطِع النوم طويلاً. عندما استيقظ في الغد عند الساعة العاشرة صباحاً، انتصب فجأة وكأن أحداً ما هزّه من مكانه: لم يكن بافيل بافيلوفيتش بالغرفة، كان سريره فارغاً وغير مرتب. «لقد فرّ في الصباح الباكر. كنت أعلم ذلك». قال فيلتشانينوف، وهو يضرب جبينه.

X

المقبرة

وتحققت مخاوف الطبيب. تدهورت صحة ليزا فجأة، بشكلٍ فاق توقعات فيلتشانينوف وكلادفيا بيتروفنا. في الصباح، عندما وصل فيلتشانينوف كانت الحمى تلتهمها، لكنها كانت في كامل وعيها، لقد تأكد فيما بعد أنها ابتسمت له، بل أكثر من ذلك مدّت له يدها الصغيرة الملتهبة. هل مرَّت الأمور على هذا النحو، أم فقط كان يتخيلها إرادياً، لكي يواسي نفسه؟

على أية حال، فإنه لم يتمكن من التأكد من ذلك: في الليلة نفسها فقدت المريضة الوعي، وبقيت على هذه الحال حتى النهاية. في اليوم العاشر لوصولها عند عائلة بوجورلتسيف ماتت ليزا. كانت فترة مؤلمة جداً بالنسبة إلى فيلتشانينوف، حتى أن تلك العائلة التي قضى عندها أكثر الأيام شقاء، خشيت تدهور صحته. في الأيام الأخيرة لمرض ليزا، بقي جالساً لمدة ساعات بإحدى الزاويا، دون أن يفكر في أي شيء على ما يظهر. كانت كلادفيا بيتروفنا تحاول أن تسليه، لكنه لا يستجيب، بل كان يشعرها بتضايقه من أحاديثها. لم تكن تعتقد أن هذا «سيخلق لديه أثراً بالغاً».

كان الأطفال ينجحون في تسليته، بل كان يضحك معهم في بعض الأحيان، لكنه كان ما ينفك يغادر مكانه، ليلقي نظرة على ليزا. كالآخرين لم يكن يحتفظ بأيّ أمل، لكنه لم يبتعد عن الحجرة حيث تُحتضر ليزا. كان يمكث دائماً في الغرفة المجاورة.

مرة أو مرتين، أظهر نشاطاً كبيراً، كان يذهب بسرعة إلى بطرسبرغ، يذهب عند الأطباء ذوي السمعة العالية ليستشيرهم. آخر استشارة كانت ليلة وفاتها. ثلاثة أيام قبل ذلك، أصرّت كلادفيا بيتروفنا على فيلتشانينوف ليبحث عن تروتوفسكي ويُحضره. وقالت: «إذا حدث مكروه في غيابه، لن نستطيع حتى دفن ليزا». أجابها فيلتشانينوف بنبرة غامضة بأنه سيراسله، أما بوجورلتسيف فأعلن بأنه سيرسل البوليس لإحضاره. وأخيراً قرر فيلتشانينوف أن يكتب له بعض الكلمات، ويضعها بنفسه بفندق بوكوروفسكي. كالعادة، لم يكن بافيل بافيلوفيتش موجوداً هناك، فترك فيلتشانينوف الرسالة لماري سيسويفنا.

ذات مساء صيفي جميل، ماتت ليزا عند مغيب الشمس، في هذه اللحظة فقط ظهر أن فيلتشانينوف استعاد وعيه، عندما ألبس جثمانها الفستان الأبيض الذي هو لأحد بنات كلادفيا بيتروفنا، ووضع في الصالون فوق الطاولة، كما وضعت الورود بين يديها الصغيرتين المتشابكتين، اقترب من كلادفيا بيتروفنا وأعلن لها بعينين متَّقدتين بأنه سيحضر «القاتل» في الحال، ثم خرج رغم أنهم نصحوه بتأجيل سفره إلى الغد. كان يعرف أين سيجد بافيل بافيلوفيتش، لم يكن يذهب مؤخراً إلى بطرسبرغ فقط، من أجل

إحضار الأطباء، بل كان يعتقد أنه إذا ما تمكَّن من إحضار بافيل بافيلوفيتش قرب ليزا، فستعود إلى الحياة بسماعها صوت أبيها، لذلك كان يجري كأحمق للبحث عنه. كان بافيل بافيلوفيتش يشغل الغرفة نفسها، لكن لم يكن من المُجدي البحث عنه في الفندق. «قد يحدث أن يتغيَّب لمدة ثلاثة أيام متتالية دون العودة إلى غرفته، وإذا حدث ذلك صدفة، فإنه يعود سكران، ثم يخرج من جديد. لقد نزل إلى الحضيض»، حكت له ماري سيسويفنا. أخبره أحد العاملين بالفندق أن بافيل بافيلوفيتش أصبح منذ مدة يزور بشكل مستمر فتيات يقطنَّ بشارع فوزنيتسكي، فوجدهن فيلتشانينوف بسهولة. بما أنه يجزل لهن العطاء، وهنّ راضيات جداً، تذكّرن زبونهن بسهولة، فقبّعته ذات الثوب الأسود المجعد كانت تثيرهن، ثم اغتنمن الفرصة للتشكي من غيابه الطويل. زِدْ على ذلك أن إحداهن، وتُدعى كاتيا تكلفت بإيجاد بافيل بافيلوفيتش، حيث قالت: «إنه لا يبرح ماشكا بوستاكوفا، فنقوده لا نهاية لها، أما بخصوص ماشكا فهي ليست بروستاكوفا، بل بروخكوفوسنا، لقد كانت نزيلة بالمستشفى، بإمكاننا بكلمة واحدة منا أن نرسلها إلى سيبيريا، إن شئنا».

لم تفلح تحريات كاتيا ذلك اليوم، ولكنها وعدته بأن تجد بافيل بافيلوفيتش في المرة القادمة. ففيلتشانينوف يعتمد عليها كثيراً.

لما وصل المدينة حوالي الساعة العاشرة، رافق كاتيا في رحلة البحث عن بافيل بافيلوفيتش. فهو لا يدري ما سيفعله به، هل

سيقتله، أم سيعلن له وفاة ابنته، ويخبره بأنه لا يمكنه دفنها دون إذنه؟

لم تكن أبحاثهما الأولى مثمرة. فقد علم أنه وقعت معركة بين ماتشكا بروخفوستوفا وبافيل بافيلوفيتش، وأن صرافاً «هشّم رأس بافيل بافيلوفيتش بكرسي». كان البحث طويلاً ومضنياً، لكن عند الساعة الثانية صباحاً، وعندما كان فيلتشانينوف يخرج من أحد الكباريهات التي دلّوه عليها، وجد نفسه وجهاً لوجه مع بافيل بافيلوفيتش. كان الأخير ثملاً جداً: كانت تجرّه امرأتان نحو الكباريه، إحداهما تشده من ذراعه، وكان يتبعهم رجل قوي البنية، قد يكون خصمه بالطبع، يصرخ بتهديدات بذيئة في اتجاه بافيل بافيلوفيتش، وكان يصيح بأن: «بافيل بافيلوفيتش يستغله، ويسمِّم حياته».

على ما يبدو، يتعلق الأمر بمبلغ مالي. كانت النساء مرعوبات، وأسرعن الخطى، وما إن لمح فيلتشانينوف حتى أسرع نحوه مادّاً يده، وهو يصرخ، وكأنهم يريدون ذبحه.

- أنقذني، يا أخي. النجدة.

لما رأى المنافس البنية الرياضية القوية لفيلتشانينوف، انسحب في لمح البصر. أما بافيل بافيلوفيتش فأحس بنشوة انتصار، واستدار رافعاً قبضته، وصارخاً دلالة على الفوز، لكن فيلتشانينوف، ودون أن يشعر، أمسكه من كتفيه، وبدأ يهزه بعنف حتى اصطكت أسنانه، فكف بافيل بافيلوفيتش عن الصراخ في الحال، واستدار نحو جلاده بنظرة ثملة وخائفة وبلهاء. وبما أن

فيلتشانينوف لم يعرف ما سيفعله به، فقد أجلسه على المقعد الخشبي الطويل، ثم قال له:

- لقد ماتت ليزا.

نظر إليه بافيل بافيلوفيتش طويلاً، وهو جالس ومسنود من طرف إحدى المرأتين، وأخيراً فهم، وبدأت تظهر على وجهه علامات الاسترخاء.

- ماتت؟ همس بصوت غريب، لم يفهم فيلتشانينوف إذا ما كان يعبِّر عنه هو مجرد ابتسامة شريرة ماكرة، أم هي تشنجات خفيفة تعتري عضلات وجهه، لكن بعد لحظات، رفع بافيل بافيلوفيتش يده اليمنى، التي كانت ترتعش، وقام برسم علامة الصليب دون أن يتمّها، وخفض يده. بعد ذلك، نهض بتثاقل، وتعلق بالمرأة، واتكأ عليها، وبدأ يمشي وكأن شيئاً لم يحدث، دون أن ينتبه لفيلتشانينوف، لكن هذا الأخير أمسكه من كتفه، وصرخ بصوت لاهث:

- أتفهم أيها السكير، الوحش، أنه من المستحيل أن تدفن من دونك؟

استدار الآخر نحوه، وتمتم بصوت ثقيل:

- أتعرف... أتعرف ملازم المدفعية.

- ماذا؟ صرخ فيلتشانينوف، وهو يرتعش متألماً.

- إنه أبوها.:. ابحث عنه لأجل الدفن.

- أنت تكذب. صرخ فيلتشانينوف بغضب شديد... أيها الشرير، أعرف أنك ستقول هذا...

وفي فورة الغضب تلك، رفع قبضته فوق رأس بافيل بافيلوفيتش، حيث كان سيصرعه، فتوارت النساء فجأة، وهن يصدرن صرخات حادة، لكن بافيل بافيلوفيتش لم يعِر ذلك اهتماماً. علت وجهه تعابير غيظ وحقد أعمى، ثم قال بصوت صارم وكأنه لم يكن سكران:

- أتعرف ذلك التعبير الروسي (وتلفَّظ بكلمات يصعب ذكرها)، إذن، ابتلع هذه وانصرف. تخلص بعنف من يدي فيلتشانينوف، تعثر حتى كاد يسقط. أمسكت النساء ببافيل بافيلوفيتش، وأخذنه هاربات تقريباً، وهن يصرخن. لم يتبعهن فيلتشانينوف.

في الغد، عند الساعة الواحدة بعد الظهر، تقدَّم موظف يرتدي بذلة رسمية، يبدو عليه الوقار والنضج. سلَّم كلادفيا بيتروفنا ظرفاً مختوماً من طرف بافيل بافيلوفيتش تروسوتسكي. كان الظرف يحتوي على الوثائق الضرورية لدفن ليزا، رسالة وثلاثة مائة روبل. كانت الرسالة قصيرة، ومحترمة جداً. كان بافيل بافيلوفيتش يعبِّر من خلالها لفخامة السيدة كلادفيا بيتروفنا، عن اعترافه بالجميل تجاه اللُّطف الذي أحاطت به تلك الطفلة اليتيمة، إن الله وحده سيُجازيها عن ذلك. كما شرح بغموض أن هناك عائقاً كبيراً يمنعه من حضور جنازة طفلته التعيسة والمحبوبة وأنه يعتمد على الطيبوبة الملائكية لفخامتها. أما بخصوص الثلاث مائة روبل فهي مخصَّصة لمصاريف الدفن والنفقات التي خلّفها مرضها. وإذا ما تبقى منها شيء، فهو يرجوها بكلّ تواضع واحترام، أن تخصصه للصلوات من أجل روح ليزا.

لم يتمكن الموظف من تقديم شروح أخرى، بل أكثر من ذلك كان يستشفّ من بعض كلماته أنه لم يقبل تسليم المظروف بشكل شخصي لفخامتها، إلا تحت إلحاح بافيل بافيلوفيتش. أما بوجورلتسيف فأحس تقريباً بالإهانة، عندما سمع كلمة «النفقات التي خلفها مرضها»، وقال بأنه يجب الاحتفاظ بخمسين روبل لأجل الدفن (فقد كان من المستحيل فعلاً، أن تمنع أباً من تحمّل مصاريف دفن ابنته) وإرجاع الباقي في الحال، مائتان وخمسين روبلاً للسيد تروسوفسكي، لكن كلادفيا بيتروفنا قرَّرت أن تمنح هذا المبلغ لمقبرة الكنيسة من أجل روح العذراء «إليزابيث». بعد ذلك أعطي الوصل لفيلتشانينوف الذي قام بإرساله لبافيل بافيلوفيتش عبر البريد.

بعد الدفن، اختفى فيلتشانينوف من الفيلا مدة أسبوعين، هام في المدينة بلا هدف، وحيداً، شارداً حتى أنه كاد يصطدم بالمارة. في بعض الأحيان كان يمكث لمدة طويلة ببيته ممدَّداً فوق أريكته. طلبت منه عائلة بوجورلتسيف الحضور عدة مرات، فكان يعدُهم بذلك، لكن سرعان ما ينسى. ذات يوم، جاءت كلادفيا بنفسها لرؤيته، لكنها لم تجده في البيت. هذا ما حصل لمحاميه أيضاً، رغم أنّ هذا الأخير كان لديه خبر مهم جداً يريد إبلاغه به: لقد استطاع التوصّل بمهارة إلى حلّ قضيته. حيث كان خصمه مستعداً لعقد اتفاق يضمن لفيلتشانينوف حقه في الإرث المتنازع عليه. لم يبقَ سوى أخذ موافقة فيلتشانينوف. ولمّا تمكَّن في الأخير من الاتصال به، تفاجأ المحامي بشكلٍ كبير من اللامبالاة والفتور التي استقبل بها الخبر، رغم أنه كان في الماضي متحمساً للأمر.

حلت أيام شهر آب/ أغسطس شديدة الحرارة، لكن فيلتشانينوف فقد مفهوم الزمن. كان يعاني من حزن شديد، حزن يجثم على صدره دون انقطاع ويسيطر على فكره بشكل تام، كان يعاني بالخصوص من فكرة أن ليزا لم يكن لها الوقت للتعرف عليه، ومن كونها ماتت دون أن تعرف أنه كان يحبها بقوة. الهدف الذي ظهر له داخل ذلك الضوء المشرق، انطفأ فجأة، وغاب داخل ظلام أبدي، إنه الآن يفكر في ذلك الهدف دون انقطاع، ويريد أن تشعر ليزا بأن حبه لها حاضر دائماً خلال كل ساعات حياته. كان يقول لنفسه بغضب غامض: «لا، لا يمكن لأي شخص أن يكون لديه هدف أعلى من هذا. إذا كانت هناك أهداف أخرى، فلا هدف أقدس من هذا». كان يقول لنفسه حالماً «حب ليزا كان سيطهِّر، ويفدي حياتي العقيمة والسيئة، أنا العاطل والشاذّ والمتعب. كنت سأدلّل، وأربّي مخلوقاً طاهراً وجميلاً، حيث كنت باسمه سأحصل على الصفح عن كل الخطايا، باسمه كنت سأغفر لنفسي». كل هذه الأفكار كانت مرتبطة بشكل وثيق بذكرى واضحة، ذكرى دائماً حاضرة بذهنه، دائماً مؤلمة، ذكرى طفلة ماتت. كان يرى وجهها الصغير الشاحب ويتذكر كل تعابيره، يراها كما كانت داخل تابوتها محاطة بالورد بعد أن التهمتها الحمى، مفتوحة العينين، وتذكر فجأة أنها لما ماتت اسودّ أحد أصابعها، الله يعلم لماذا، أذهله الأمر حتى أنه أحس بالشفقة اتجاه ذلك الأصبع الصغير، وهنا بزغت بداخله فكرة البحث في الحال عن بافيل بافيلوفيتش، ثم قتله، إلى الآن كان يبدو بلا إحساس تماماً.

هل هو الإذلال الذي تعرَّض له قلب تلك الطفلة، هو الذي حطمه؟ أم الآلام التي سببها لها أبوها لمدة ثلاثة أشهر، ذلك الأب الذي حلت الكراهية محلّ الحب بداخله، ذلك الأب الذي سبّها، سخر من خوفها، وتخلى عنها للغرباء. لم يكفّ عن التفكير في هذه الأشياء، حيث بقي يجترّ الأفكار نفسها بلا نهاية. وتذكَّر فجأة جملة تروسوتسكي، «أتعرف ما تعنيه بالنسبة إليّ ليزا؟». وفهم أنها لم تكن صرخة سكير، بل تعبير صادق، إنه الحب. «كيف يمكن لهذا الجلاد أن يكون قاسياً تجاه طفلة يحبها بهذا القدر؟ هل هذا ممكن؟»، لكنه كان يرفض كل مرة هذه المسألة، ويطردها بعيداً، كان هناك شيء مرعب، شيء صعب جداً، شيء غامض.

ذات يوم، ودون وعي منه تقريباً، توجّه نحو المقبرة حيث دُفنت ليزا. وتوجّه نحو قبرها. منذ مراسيم الدفن لم يسبِق له أنْ زارها. كان يعتقد أن الألم سيكون قوياً، ولن يجرؤ، لكن الغريب هو أنه لمّا انحنى على القبر، ووضع قبلة طويلة، أحسّ فجأة بنوع من الراحة. كانت السماء صافية، كانت الشمس تغرب، قرب المقابر، وحولها نبتت أعشاب كثيفة وطرية، وكانت نحلة تطنّ وسط شجيرة الزعرور البري، الورود والتيجان التي وضعها أطفال كلادفيا بيتروفنا فوق القبر الصغير ما زالت هناك شبه عارية، ولأول مرة انتعش قلبه ببعض الأمل، وقال لنفسه: «يا لها من طاقة». لقد غمره سلام المقبرة، كانت نظراته ضائعة وسط السماء الصافية والهادئة. اعترت نفسه ثقة غريبة وهادئة ملأت روحه، وقال: «إنها ليزا التي ترسل إليّ هذا، إنها ليزا التي تكلمني».

بدأ الظلام يغمر المكان، وأخذ طريق العودة. غير بعيد عن المقبرة، وهو يتابع طريقه، مرَّ قرب منزل صغير من الخشب، إنه نزلٌ ريفي حيث نرى من النوافذ المفتوحة الناس جالسين إلى الطاولات. وفجأة ظهر له أن أحدهم كان جالساً قرب النافدة، ينظر إليه بنوع من الفضول، إنه بافيل بافيلوفيتش. واصل طريقه، لكنه سمع أن هناك مَن يحاول اللحاق به، بالفعل إنه بافيل بافيلوفيتش، إنه يجري خلفه، من المحتمل أن يكون وجه فيلتشانينوف المعبِّر عن السكينة قد شجّعه، وربما أثاره. لمّا وصل بالقرب منه، وابتسم في خوف، لكن لم تكن ابتسامة السكير المعهودة، فهو لم يكن الآن ثملاً.

- طاب نهارك.

- طاب نهارك، أجابه فيلتشانينوف.

XI

بافيل بافيلوفيتش يتزوج

ما كاد بافيل بافيلوفيتش ينطق بتلك الكلمة، حتى أصيب هو نفسه بالذهول. بدا له أنه من الغريب أن لا تثير فيه رؤية ذلك الشخص أي شعور بالغضب، لكنه ولَّد لديه إحساساً غريباً أو بالأحرى رغبة بالشعور بعواطف جديدة:

- يا له من مساء جميل. قال بافيل بافيلوفيتش بنبرة ودودة.

- ألم ترحل بعد؟ قال فيلتشانينوف وهو يواصل المشي، حيث يظهر أن ما يقوله هو تفكير بصوت أعلى أكثر منه سؤال موجّه إلى بافيل بافيلوفيتش.

- نعم، لقد تأخرت شيئاً ما، ولكنني حصلت على تعيين بمنصب أعلى، وسأغادر غداً بعد الظهر، هذا أكيد.

- حصلت على تعيينك؟ سأله فيلتشانينوف.

فأجابه بافيل بافيلوفيتش وهو يمطّ شفتيه بشكل خفيف:

- ولم لا؟

- أوه إنه مجرد كلام. قال فيلتشانينوف.

كان يتفحص فيلتشانينوف بشكل خفي، وهو يهزّ حاجبيه، كانت

دهشته كبيرة عندما رأى أن المظهر الكامل للسيد تروسوتسكي، ملابس وقبعة الحداد، قد أصبح أكثر ملائمة وأكثر احتشاماً وأناقة من السابق، وتساءل بداخله: «تُرى ماذا يفعل بهذا الفندق؟».

– أرغب في أن أتقاسم معك فرحة أخرى، يا سيد ألكسي بافيلوفيتش.

– فرحة؟

– سأتزوج.

– كيف؟

– هذه سنّة الحياة. بعد الآلام والحبور، هكذا تسير الأمور. أرغب في... لكن لست أدري، فأنت ربما على عجلة من أمرك، تبدو...

– نعم، أنا... مستعجل وأشعر بالضيق.

أحسّ فجأة برغبة في التخلص من صديقه. فالاستعدادات الطيبة التي كانت قد برزت لديه، اختفت فجأة.

– أما أنا فقد كنت أود...

لم يقل بافيل بافيلوفيتش ما كانِ يودّ قوله، أما فيلتشانينوف فلم يعِر لكلماته أي اعتبار.

– في هذه الحالة، فلنرجئ الأمر إلى ما بعد، إذا كُتب لنا اللقاء.

– نعم، نعم، إلى ما بعد، ما بعد. قال فيلتشانينوف وهو يواصل طريقه دون النظر إليه.

ساد الصمت لمدة دقيقة. كان بافيل بافيلوفيتش يمشي بجانبه، وقال أخيراً:

- إلى اللقاء، إذن.

- إلى اللقاء، أتمنى لك. . .

وعاد فيلتشانينوف إلى بيته، وهو يحسّ بالاضطراب من جديد.

رؤية هذا الشخص كانت فوق طاقته. وتساءل مرة أخرى وهو يتمدَّد فوق سريره: «ماذا كان يفعل قرب المقبرة؟».

في الغد صباحاً، عزم أخيراً على زيارة عائلة بوجورلتسيف، قرَّر ذلك عن مضض. إنه لا يحتمل أية مظاهر للشفقة أو التعاطف من طرف أيٍّ كان، حتى ولو كانت عائلة بوجورلتسيف، لكنهم كانوا قلقين بشأنه، لذا كان من الضروري أن يزورهم. فجأة، تخيّل أنه سيشعر بالخجل، وهو يراهم لأول مرة. «أذهب، أم لا أذهب؟»، تساءل وهو يحاول إتمام أكله بسرعة، فإذا ببافيل بافيلوفيتش يدخل بشكل مفاجئ، أمام الدهشة العارمة لفيلتشانينوف.

رغم لقاء الأمس، ففيلتشانينوف لم يتخيل أن هذا الرجل سيتخطى عتبة بيته من جديد، لقد كان حائراً حتى أنه لم يوجه له أية كلمة، لكن بافيل بافيلوفيتش لم يكترث بالأمر، بل حياه وجلس على الكرسي نفسه الذي كان قد شغله منذ ثلاثة أسابيع، أثناء الزيارة التي تذكرها فيلتشانينوف فجأة، وبوضوح عجيب. نظر إلى ضيفه بخليط من القلق والتقزز.

- أَفاجأك حضوري؟ قال بافيل بافيلوفيتش بعد فهمه لمعنى كل تلك النظرات.

كان يبدو أكثر انفتاحاً من الأمس، لكنه في الوقت نفسه، كان أكثر خوفاً وحَرَجاً. كان منظره مثيراً للدهشة، فلقد ارتدى هنداماً ليس فقط ملائماً، ولكن راقياً: سترة صيفية خفيفة، وسروال فاتح اللون لاصق، وصدرية ناصعة، وقميص قطني جديد، وقفازين، والله يعلم لماذا كان يضع على إحدى عينيه نظارة ذهبية، كل هذا كان متناسقاً بشكل كبير، حتى أنه وضع عطراً. رغم ذلك فإن مظهره يوحي بالضحك، وفي الوقت نفسه بشيء غريب وغير مريح.

قال بافيل بافيلوفيتش، وهو يبذل مجهوداً ملحوظاً.

- من البديهي أن تفاجئك زيارتي، إني أحسّ بذلك، لكنني أعتبر أن هناك دائماً بين الرجال شيئاً سامياً، أليس كذلك؟ أسمى من جميع الظروف والمشاكل الطارئة.

- بافيل بافيلوفيتش تحدّث دون لفٍّ ولا دوران. قال فيلتشانينوف وهو يقطب ما بين حاجبيه.

فقال بافيل بافيلوفيتش:

- باختصار... سأتزوج، أنا الآن ذاهب في الحال عند خطيبتي التي تقطن بالريف أيضاً. وأريد أن يحصل لي شرف تقديمك لتلك العائلة، وأسمح لنفسي بأن أطلب منك بكل تواضع (يخفض بافيل بافيلوفيتش رأسه)، أن ترافقني.

- إلى أين تريد أن أرافقك؟

- عندهم، بمنزلهم، اعذرني أنا متحمس شيئاً ما، ربما

اختلطت عليّ الأمور، لكني كنت أتوقع رفضك.

نظر إلى فيلتشانينوف متباكياً.

- أنت تريد الآن أن أرافقك عند خطيبتك؟ قال فيلتشانينوف وهو لا يصدق عينيه، ولا حتى أذنيه.

قال بافيل بافيلوفيتش، وقد راوده خوف مفاجئ وعارم:

- أنت لست غاضباً مني، ألكسي إيفانوفيتش؟ هذه ليست وقاحة من طرفي، إنما مجرد طلب، رجاء متواضع كنت أتخيل أنك لن ترفضه.

- أولاً، هذا مستحيل.

بدأ فيلتشانينوف يتحرك فوق كرسيه. فواصل بافيل بافيلوفيتش:

- هذه ليست سوى رغبة عارمة من طرفي. لا أخفيك أنه كان لي دافع ما أيضاً، لكني لن أبوح به إلا فيما بعد، والآن أرجوك بإلحاح.

ونهض باحترام تام.

- على أية حال، الأمر مستحيل، وعليك أن تعترف بذلك.

ونهض فيلتشانينوف أيضاً.

- بل ممكن جداً يا ألكسي إيفانوفيتش، أردتُ أن أقدمك لهم كصديق... إضافة إلى كونهم يعرفونك هناك، إنها عائلة زاخليبينين، مستشار الدولة زاخليبينين.

- كيف ذلك؟ تعجب فيلتشانينوف.

إنه مستشار الدولة الذي حاول فيلتشانينوف لقاءه دون جدوى

أكثر من مرة، والذي يظهر أنه يساند الطرف الآخر بخصوص الإرث. الدهشة التي أبداها فيلتشانينوف شجعته كثيراً على الحديث، فقال وهو يبتسم:

- أي نعم... أي نعم... إنه هو نفسه، أتذكر؟ كنتما تمشيان معاً، وأنا على الرصيف الآخر أراقبكما، كنت أنتظر ذهابك لأقترب منه، لقد اشتغلنا معاً في الإدارة نفسها منذ عشرين سنة خلت، لكن عندما اقتربت منه، لم تكن لدي أية فكرة. فالمسألة لم تخطر ببالي إلا فجأة، منذ أسبوع تقريباً.

- لكن يظهر لي، أنها عائلة محترمة جداً. قال فيلتشانينوف بتعجب ساذج.

- إنها عائلة محترمة جداً، وماذا بعد؟

انقبض وجه بافيل بافيلوفيتش قليلاً.

- آه، لا شيء، لم أكن أقصد شيئاً، لكن ما لاحظته عند زيارتي لهم...

- أنهم يتذكرون... يتذكرون زيارتك لهم، قاطعه بافيل بافيلوفيتش بتسرع يشوبه الفرح، لكنك لم تستطع رؤية العائلة ذلك اليوم. أما الأب فهو يتذكرك، ويقدِّرك. تحدث عنك بكلمات طيبة جداً.

- لكن أنت لم تَصِرْ أرملاً إلا منذ ثلاثة أشهر.

- لن يعقد قراننا في الحال، فذلك لن يحدث إلا بعد تسعة أو عشرة أشهر. سأكون وقتها قد تخليت عن ثوب الحداد. كُنْ على يقين، كل شيء على ما يرام، أولاً فيدوسي بيتروفيتش يعرفني مُذْ

كنت طفلاً، ويعرف زوجتي، ويعرف كيف نشأت، ويعرف مساري المهني بالإضافة إلى كوني أملك ثروة محترمة، وتم تعييني في منصب سام.

- إذن ستتزوج ابنته؟

- سأحكي لك بالتفصيل.

وفرك بافيل بافيلوفيتش يديه بسرور.

- لكن اسمح لي أولاً بإشعال سيجارة. سترى كل شيء بنفسك اليوم. زِدْ على ذلك، أن رجال الأعمال أمثال فيدوسي بيتروفيتش يحظون بمكانة مرموقة ببطرسبرغ، وفقاً للثروة التي يملكونها، لكن إذا استثنينا التعويضات والمكافآت وغيرها، لا تبقى له أية مدخرات، إنه يعيش في رفاهية، لكنه لا يدخر شيئاً، خصوصاً أن له أسرة كبيرة. تصور معي أن فيدوسي بيتروفيتش له ثماني بنات وطفل صغير. إذا توفي فلن يحصلوا سوى على معاشٍ متواضع. تصور معي ثماني فتيات، إذا احتاجت كل واحدة منهن إلى زوج نعال، كم سيكلف ذلك؟ خمسة منهن في سنّ الزواج. الكبيرة تبلغ أربعة وعشرين سنة (فتاة جميلة، سترى)، أما السادسة فتبلغ من العمر ست عشرة سنة، ما زالت تدرس بالمرحلة الثانوية. ينبغي إيجاد أزواج لخمس فتيات، ويجب الاستعداد لذلك مسبقاً، وعلى الأب أن يهيئهن لدخول المجتمع الراقي. أتتصور كم يكلِّف هذا الأمر؟ . . . وها أنا أظهر في الصورة، أنا الخاطب الأول الذي يطرق باب المنزل. . . ويعلمون أنني ثري. . . هذا كل شيء.

كان بافيل بافيلوفيتش يتحدث بحماس.

- هل البكر هي التي طلبتها للزواج؟

- لا . . . ليست البكر . . . لقد خطبت السادسة التي تدرس بالثانوي.

قال فيلتشانينوف وهو يبتسم بالرغم عنه:

- كيف ذلك؟ لقد قلت إنها في الخامسة عشرة من العمر.

- الآن لا تبلغ سوى خمسة عشر عاماً، لكن بعد تسعة أشهر ستبلغ ست عشرة سنة وثلاثة أشهر، ثم لم لا؟ وبما أن الأمر غير ملائم الآن، فنحن لم نعلن عن أي شيء، صدّقني، الكل على ما يرام.

- إذن، لم يتقرَّر شيء بعد.

- بلى، تقرَّر كل شيء . . . الكل على ما يرام، صدقني . . .

- وهي، هل تعلم؟

- نحن لا نتحدث عن ذلك، احتراماً للعادات، لكن، كيف لها أن لا تعلم؟ قال وهو يغمز بعينه، ثم ختم بخجل مضيفاً:

- إذن، هل تشرِّفني بمرافقتي يا سيد ألكسي إيفانوفيتش؟

- لكن ما هو دوري هناك؟ قال فيلتشانينوف، ثم أضاف بسرعة:

- ثم بما أني لن أذهب في جميع الأحوال، لا تحاول إقناعي بتقديم أسباب أخرى.

- ألكسي إيفانوفيتش . . .

- لكن كيف لي أن أجلس بجانبك في العربة؟ تصور ذلك؟

وبزغ بقوة الإحساس بالعداء والتذمّر الذي حجبته لوقت وجيز

ثرثرة بافيل بافيلوفيتش، لو أضاف شيئاً آخر لرماه خارجاً. لقد كره نفسه دون أن يدري السبب.

- ستجلس بجانبي يا ألكسي إيفانوفيتش، ستجلس ولن تندم على ذلك، قال بافيل بافيلوفيتش بتأثر، لا، لا، قالها مصحوبة بحركة يد فضة، جواباً على حركة نفاد صبر من فيلتشانينوف. انظُر قبل أن تتخذ قرارك، أنا أرى أنك لم تفهمني جيداً. قدِّم لي هذه الخدمة، وبعد ذلك اعتبر وكأن شيئاً لم يحدث. سيكون أمراً معزولاً دون تبعات. لقد قصدتك بأملٍ كبير، معتمداً على نُبل إحساسك يا ألكسي إيفانوفيتش، على المشاعر التي تكون قد استيقظت بقلبك. أعتقد أني أتحدث بوضوح، أليس كذلك؟

كان بافيل بافيلوفيتش مضطرباً جداً، وكان فيلتشانينوف ينظر إليه بغرابة، وقال له:

- أنت تطلب مني أن أسدي لك خدمة من هذا النوع، تلحُّ عليّ بشكل كبير إلى درجة تجعلني أحترس منك، أريد معرفة المزيد.

- أنا أطلب منك أن ترافقني، ولا شيء غير ذلك. بعد عودتك من هذه المهمة، سأحكي لك كل شيء، وكأنك قسّ أعترف له بذنوبي. ألكسي إيفانوفيتش امنحني ثقتك.

لكن فيلتشانينوف كان متمسكاً برفضه، كان يشعر بفكرة غامضة وشريرة تنبثق في نفسه، كانت تتأرجح بداخله منذ أن تحدَّث بافيل بافيلوفيتش عن خطيبته. هل كان ذلك مجرد فضول، أم هي رغبة أخرى لم تتبلور بعد؟ شيء ما يدفعه للقبول، لكن كلما كانت

الإغراءات قوية، كلما كانت المقاومة صلبة. كان جالساً متكئاً على مرفقيه، وغارقاً في التفكير.

بافيل بافيلوفيتش يدور حوله، يلحّ عليه، ويتوسل إليه.

- حسناً، سأرافقك. قال بشكلٍ مباغت ومضطرب. فأظهر بافيل بافيلوفيتش فرحة كبرى.

- لكن أرجوك يا ألكسي إيفانوفيتش، ارتدِ ملابس أنيقة تليق بالمناسبة.

«يا له من رجل مضحك، لماذا يتشبَّث بهذه المسألة؟»، فكّر فيلتشانينوف.

- أنتظر منك خدمة أخرى يا ألكسي إيفانوفيتش، بما أنك قد وافقت، كن الآن مستشاري.

- بخصوص ماذا مثلاً؟

- لديّ مسألة جدّ مهمة: ثوب الحداد هل أحافظ عليه أم أزيله؟

- كما تريد.

- لا، أنا أنتظر قرارك، كيف كنت ستتصرف أنت، ولمَ كنت ستضع قبعة بثوب الحداد؟ إنني أفكر في الاحتفاظ به، لأن ذلك يدلّ على إخلاصي، ويقوّي من حظوتي.

- عليك بإزالته، فالمسألة بديهية.

- هل الأمر بديهي إلى هذه الدرجة؟

وبعد لحظة تفكير حالمة، قال:

- لا، أفضِّل أن أحتفظ به.

- كما تشاء.

«رغم ذلك فهو لا يثق بي، هذا جيد»، قال فيلتشانينوف محدِّثاً نفسه، وخرجا. كان بافيل بافيلوفيتش ينظر إلى فيلتشانينوف برضا، فقد كان أنيقاً جداً، وكان وجهه يعبِّر فيما يبدو عن احترام وأهمية كبيرين. أما مظهره فقد خلق الشعور نفسه عند فيلتشانينوف. كانت هناك عربة جميلة وأنيقة في انتظارهما.

- هل اكتريت العربة مسبقاً؟ أكنت متأكداً إذن من موافقتي؟

- لقد طلبت العربة لنفسي، لكني كنت متأكداً تقريباً من أنك ستقبل. أجابه بافيل بافيلوفيتش، وهو في كامل الفرح.

- ألا تبدو واثقاً بي أكثر من اللازم؟ قال فيلتشانينوف بعد تحرّك العربة، وهو يطلق ضحكة ممزوجة بمسحة من الأسى.

- لست أنت من سيقول لي إني تصرّفت بغباء. أجابه بافيل بافيلوفيتش بجدية وصوت قوي.

«وليزا» فكر فيلتشانينوف، لكنه ما لبث أن طرد هذه الفكرة في الحال، وكأنه يخشى ارتكاب معصية. بدا له فجأة أنه يتصرف بشكل حقير وتافه، الفكرة التي أغرته ظهرت له أيضاً بائسة ودنيئة، حيث أحس مرة أخرى برغبة عارمة في التخلي عن كل شيء والقفز من العربة، حتى ولو اضطرّ إلى استعمال القوة للتخلُّص من بافيل بافيلوفيتش، لكن هذا الأخير عاد إلى الحديث، فغمر الإغراء من جديد روح فيلتشانينوف.

- قل لي، ألكسي إيفانوفيتش، هل تفهم في المجوهرات؟

- أي مجوهرات؟

- البراقة.

- نعم، أفهم.

- أريد أن أحمل هدية صغيرة، بماذا تنصحني؟

- في رأيي، لا داعي لذلك.

- لكن، أنا أريد أن أقوم بهذا الأمر. أكد بافيل بافيلوفيتش. ماذا أشتري؟ طاقماً بأكمله؟ مشبك صدر، وأقراط، وأساور؟ أم شيئاً واحداً فقط؟

- ما هي مقدرتك المادية؟

- أربعمائة أو خمسمائة روبل.

- أوه... أوه...

- هل هذا كثير؟ قال بافيل بافيلوفيتش قلقاً.

- اشترِ فقط سواراً بمائة روبل.

وبدا القلق على بافيل بافيلوفيتش، لقد كان يريد أن يدفع أكثر، ويشتري طقماً كاملاً، وأصرَّ على ذلك. ثم توقفا أمام أحد المتاجر. وأخيراً، رغم ذلك لم يشترِ سوى سوار، ليس الذي أعجب به بافيل بافيلوفيتش، ولكن ذلك الذي اختاره فيلتشانينوف. كان بافيل بافيلوفيتش يرغب في شراء الاثنين، وعندما خفض الجوهري الثمن إلى مائة وخمسين، بعد أن كان قد حدَّده في مائة وسبعين روبلاً، شعر بنوع من الغضب، كان سيكون سعيداً بأداء مائتين، لو أصرّ التاجر على ذلك، لقد كانت له رغبة عارمة في الإنفاق.

قال بفرح بعد انطلاق العربة:

- ليس هناك عيب في أن أمنحها هدية منذ الآن. إنهم ليسوا بالأبهة التي تتخيل، فهم ناس بسطاء. البراءة تحب الهدايا الصغيرة.

ثم أضاف بابتسامة مُرّة وماكرة:

- لقد فاجأك سنها، خمسة عشرة سنة، لكن هذا بالضبط ما ألهب مخيلتي، ذهابها إلى الثانوية بمحفظتها المدرسية في اليد... ها... ها... إنها المحفظة التي سلبتني، أنا مع البراءة، ألكسي إيفانوفيتش، في رأيي المهم ليس جمال الوجه، بل البراءة هي الأهم. ضحكاتها مع صديقتها في زوايا المدرسة، أي ضحكات، يا إلهي، وبخصوص أي موضوع؟ موضوع القطة التي قفزت درج السرير... درج السرير حيث تكومت ككرة... هذه باقة من الرقّة. ربما من الأفضل أن أزيل القماش؟

- كما تشاء.

- إذن، سأزيله.

أزال قبعته، ثم نزع القماش، ورمى به في الطريق. ورأى فيلتشانينوف وجهه يشرق أملاً، وهو يعيد القبعة فوق رأسه الأصلع، لكن فكر فيلتشانينوف أخيراً في غضب، «هل هذه حقيقته؟ أليس هناك فخّ ما وراء إصراره هذا؟ هل يعتمد بالفعل على أريحيتي؟». وبدت له هذه الفرضية الأخيرة مستفزة. «من يكون، إذن؟ مهرج أهبل، أم زوج أبدي؟ لكن هذا مستحيل».

XII

عند أسرة زاخليبينين

كانت أسرة زاخليبينين «أسرة محترمة جداً»، كما سبق أن عبَّر عن ذلك فيلتشانينوف، كان زاخليبينين يشغل منصباً مهماً، وكان موظفاً محترماً. وما قاله بافيل بافيلوفيتش حول مواردهم المالية هو صحيح أيضاً: «إنهم يعيشون وضعاً مريحاً، رغم أنّ وفاة الأب قد تجعلهم دون موارد تُذكر».

خصص زاخليبينين استقبالاً حارّاً لفيلتشانينوف، خصم الأمس الذي أصبح اليوم صديقاً.

- هنيئاً لك، هذا أفضل. كان هذا أول ما أعلن بنبرة لطيفة، لقد حرصت بنفسي على إيجاد حلٍّ متَّفق عليه، أما بخصوص بيوتر كارلوفيتش (محامي فيلتشانينوف)، فهو رجل جيد. هكذا ستحصل على مليون روبل دون نقاش ودون مماطلة، بينما كانت القضية ستطول لمدة ثلاث سنوات.

تمّ تقديم فيلتشانينوف في الحال إلى السيدة زاخليبينين، وهي امرأة مسنة، ضخمة الجسد، ذات وجه متعب وعادي. ثم بعد ذلك ظهرت الفتيات واحدة تلو الأخرى. كنّ كثيرات: عشرة أو اثنتي

عشرة، حتى أن فيلتشانينوف لم يستطِع تحديد عددهن: بعضهن يدخلن، وأخريات يخرجن، لكن كانت بينهن جارات أيضاً، وصديقات العائلة. فيلا عائلة زاخليبينين، بناية كبيرة من خشب بذوق مجهول وغريب، كما كانت تحتوي على ملحقات تنتمي من حيث أسلوب بناءها إلى فترات تاريخية مختلفة، كانت تضم أيضاً حديقة شاسعة تطلّ عليها ثلاثة أو أربعة منازل أخرى. إنها حديقة مشتركة، وهو ما يساهم بالطبع في تقارب بنات زاخليبينين وجاراتهن.

لاحظ فيلتشانينوف منذ البداية، أن زيارته كانت مرتقبة وأنها أعلنت بطريقة احتفالية، كزيارة من طرف صديق بافيل بافيلوفيتش الراغب في التعرُّف على العائلة... فنظراته الثاقبة وذات التجربة الكبيرة في هذا المجال، مكَّنته بسرعة من معرفة النوايا الخاصة، التي تختبئ وراء حفاوة الاستقبال المبالَغ فيها من طرف العائلة، فهم ذلك أيضاً من خلال الأناقة الزائدة للفتيات. أضف إلى ذلك أنه شكَّ في كون بافيل بافيلوفيتش قد استعمل الحيلة، وبكلمات مُضْمَرة بالطبع وصفه كرجل من الطبقة الراقية، أرهقته حياة العزوبية وهو مستعدٌّ الآن لنبذها من أجل الاستقرار، خصوصاً وأنه حصل على إرث محترم... ويبدو أن البنت البكر لأسرة زاخليبينين، كاترينا فيدويسويفنا، تلك التي تبلغ من العمر أربعة وعشرين سنة، والتي تحدَّث عنها بافيل بافيلوفيتش كفتاة جميلة، هيَّأت نفسها لهذه المناسبة.

لقد تميزت عن أخواتها بلباسها الراقي، وتسريحة شعرها. زِدْ

على ذلك أن أخواتها والآخرين بدوا متيقنين من أن فيلتشانينوف جاء «لأجل كاتيا، لأجل معاينتها». نظراتهم وبعض الكلمات التي صدرت عنهم خلال ذلك اليوم، أكدت له تلك الفرضيات.

كانت كاترينا فيدويسويفنا فتاة شقراء، قوية البنية وذات ملامح لطيفة وطبع هادئ ومتردد، فكر فيلتشانينوف وهو ينظر إليها بتلذذ حقيقي: «من الغريب أن تبقى دون زواج إلى هذه السن، صحيح أنه ليس لها مهر، وستصبح أكثر بدانة لاحقاً، لكن رغم ذلك هناك من يعشق هذا النوع من الجمال».

أما الأخوات الأخريات، فلم يكنّ أقلّ جمالاً، وضمن الجارات لاحظ بعض الجميلات ذوات الوجه الطفولي. كان هذا يسليه، وكان له تصوره الخاص للمسألة.

ناديجدا فيدويسويفنا، الأخت السادسة، التلميذة، تلك التي يعتبرها بافيل بافيلوفيتش خطيبته، كانت تدلل بتأخرها في الظهور. كان فيلتشانينوف ينتظرها بنفاد صبر مذهل، جعله يسخر من نفسه. وأخيراً دخلت وبرفقتها صديقتها ماريا نيكيتشنا، فتاة سمراء ذات ملامح حية وحادة، وهو الشيء الذي خلف خوفاً شديداً لدى فيلتشانينوف. ماريا نيكيتشنا، شابة تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة، ضاحكة وذكية، كانت تشتغل كمربية لدى عائلة صديقة وجارة، عائلة كان لديها أطفال صغار. أسرة زاخليبينين كانت تعاملها كواحدة من بناتها، كانت الفتيات مغرمات بها، بالخصوص ناديجدا حيث كان من الظاهر أنها لا يمكن أن تستغني عنها.

منذ النظرة الأولى، لاحظ فيلتشانينوف أن جميع الفتيات بمن

فيهن الجارات، متحالفات ضدّ بافيل بافيلوفيتش، وما كادت تمر دقيقة على دخول ناديجدا، حتى لاحظ أنها هي الأخرى تكرهه، ولاحظ أيضاً أن بافيل بافيلوفيتش لا ينتبه لذلك، أو لا يريد التسليم به. كانت ناديجدا أجملهن دون منازع: فتاة سمراء ذات طبع متوحش، جريئة، عفريت صغير، ذات عينين متقدتين وابتسامة حلوة، شريرة في بعض الأحيان، ذات شفاه وأسنان رائعة، رشيقة القوام، طويلة القامة، وجهها الطفولي يعبِّر عن ذكاء حاد. كل حركة من حركاتها، كل كلمة من كلماتها تعكس سنواتها الخمسة عشر. وثَبُت فيما بعد أنها كانت تحمل بالفعل محفظة مدرسية من القماش المشمّع، عندما رآها بافيل بافيلوفيتش لأول مرة، ولكنها الآن لم تعُد تحمل أي محفظة.

لم يحظ السوار بالنجاح المنتظر، بل على عكس ذلك، ترك لديها انطباعاً سيئاً. فما إن رأى بافيل بافيلوفيتش خطيبته، حتى اقترب منها مبتسماً، وقدم لها الهدية وهو يحدّثها عن «الشعور العظيم الذي أحسّ به في المرة السابقة، وهو يستمع إلى عزف ناديجدا فيدويسويفنا على البيانو، ولأدائها تلك الأغنية الشعبية...» . اختلطت عليه الأمور، ولم يستطع إتمام كلامه، فبقي على هذه الحال، محاولاً وضع السوار في يد ناديجدا، التي رفضت ذلك حيث احمرّت من شدة الخجل، وسحبت يدها إلى الوراء. وأخيراً توجهت نحو أمها، التي بدت متضايقة، وقالت بصوت عالٍ:

– ماما، أنا لا أريد ذلك... لا أريد ذلك...

- خذيه. وتقدّمي بالشكر. قال الأب بنبرة جدية وصارمة، لكنه كان غير راضٍ هو الآخر عن ذلك، حيث قال لبافيل بافيلوفيتش بصوت منخفض وبطريقة معبرة:

- لم يكن هذا ضرورياً، حقاً لم يكن ضرورياً.

أخذت ناديجدا العلبة مستسلمة، وخفضت عينيها نحو الأرض، وقامت بالتحية على طريقة البنات الصغيرات، فانحنت ثم انتصبت بشكل آلي. اقتربت إحدى أخواتها لترى السوار، فأمدّتها ناديجدا بالعلبة مغلقة، ملمِّحة بتلك الطريقة لكونها لا تريد حتى رؤية ما بداخلها. أخرجن السوار من العلبة، الذي مرّ من يد إلى يد أخرى، لكنهن جميعاً تفحصنه في صمت، وبعضهن بابتسامة ساخرة، وحدها الأم قالت بصوت رخو بأن السوار جميل جداً، أما بافيل بافيلوفيتش فتمنى لو أن الأرض انشقت، وابتلعته. ولإخراجه من هذه الورطة، شرع فيلتشانينوف في الحديث بصوت مرتفع وبإسهاب، متلقفاً الفكرة الأولى التي خطرت بباله، لم تمرّ سوى خمس دقائق حتى استطاع جلب انتباه جميع الحاضرين. كان متمكناً من فن حديث الصالونات، هذا الفن الذي يقتضي أن يبدو الشخص بسيطاً وجاداً في الوقت نفسه، أن يظهر لمستمعيه بأنهم هم الآخرون بسطاء وجادون. وعند الضرورة، يعرف جيداً أداء دور الرجل المرح والسعيد. يعرف أيضاً، كيف يستعمل في الوقت المناسب كلمة ذات بُعد روحي، إيحاءات مسلية أو اللعب بالكلمات وذلك بشكل عفوي، دون تفكير رغم أن تلك الكلمات والحكايات قد تكون هيئت منذ مدة، حُفظت عن ظهر قلب، وقام

بالتدريب عليها مرات عديدة، لكن اليوم، كان مزاجه مسانداً لفنه، وكان يحسّ بتفتّح قريحته، شيء ما كان يثيره، كان له اليقين التام بأنّ كل هذه العيون ستتجه نحوه بعد دقائق، كل هؤلاء الناس لن يسمعوا لأحد سواه، لن يتكلموا إلا معه، لن يضحكهم سوى ما يحكيه. وبالفعل، انطلقت الضحكات من هنا وهناك، وشيئاً فشيئاً عمّت الأحاديث المكان. كان يملك موهبة كبيرة في جلب الناس إلى الحديث، حيث كنت تسمع ثلاثة أصوات أو أربعة تنطلق في الوقت نفسه. هكذا أضاء الرضا وتقريباً الحبور، الوجه المتعب والرخو للسيدة زاخليبينين، وكذلك الحال بالنسبة إلى كاترينا فيدويسويفنا، التي كانت تستمع وتنظر بانبهار، أما ناديجدا فكانت تراقب فيلتشانينوف خلسة، بيقظة شديدة، فمن الظاهر أنهم حرّروها منه. ولم يزد هذا فيلتشانينوف إلا حماساً، لكن ماريا نيكيتشنا «الشريرة»، نجحت خلال النقاشات الدائرة في بثّ إشاعات مغرضة. لقد أكدت أن بافيل بافيلوفيتش تحدّث لها بالأمس عن بافيل بافيلوفيتش كصديق طفولة، هكذا أضافت إلى سنّه سبع سنوات كاملة، لكن فيلتشانينوف نجح أيضاً في نيل إعجاب ماريا نيكيتشنا الخبيثة. كان بافيل بافيلوفيتش مبهوراً كلياً، بالطبع فهو يعرف إمكانات صديقه، كان سعيداً في البداية بهذا النجاح، كما ضحك بتواضع مع الآخرين، وشاركهم الحديث، لكن شيئاً فشيئاً بدا مهموماً، غارقاً في التفكير، كان وجهه الحزين يشي بأحاسيسه المضطربة.

أعلن السيد زاخليبينين بفرح، وهو ينسحب، أن العديد من

الأوراق كانت تنتظره على مكتبه للتوقيع، رغم أن اليوم يوم عطلة:

- أرى أنك من الضيوف الذين ليسوا في حاجة إلى تكلُّف. تصوّر أنّ من بين جميع الشباب، كنت أعتبرك من حيث الطبع أكثر سوداوية، لقد كنت مخطئاً.

كان هناك بيانو بالصالون، أراد فيلتشانينوف معرفة مَن يعزف على هذه الآلة، فتوجه فجأة لناديجدا:

- تغنين، على ما أعتقد؟

فأجابته بجفاء:

- مَن قال لك ذلك؟

- إنه بافيل بافيلوفيتش، لقد أخبرني بكل شيء منذ قليل.

- هذا ليس صحيحاً، أنا أغني لأتسلى، فصوتي ليس جيداً.

- أنا أيضاً، ولكنني أغني.

- ستغني إذن، في هذه الحالة. سأغني أنا أيضاً. قالت ناديجدا ببريق في العينين، لكن ليس الآن، بعد العشاء، لقد مللتُ هذا البيانو، هنا الجميع يغني صباح مساء، وحدها كاتيا تكتفي بالاستماع بعض الشيء. وهنا اغتنم فيلتشانينوف الفرصة ليقول بأن كاترينا فيدويسويفنا وحدها دون الجميع، تبدي اهتماماً جدياً بالموسيقى، ثم ما لبث أن طلب منها أن تعزف، وظهر أن الجميع كان سعيداً بتوجيه الكلام لكاتيا، حتى أن الأم احمرت من شدة الفرح.

نهضت كاتيا متوجهة نحو البيانو وهي تبتسم، احمرت وأحسَّت بحرج كبير من احمرارها، الذي جعلها تشبه طفلة، هي

القوية والكبيرة والبالغة من العمر أربعاً وعشرين سنة. زِدْ على ذلك أنّ كل هذه الأحاسيس، ظهرت على محياها عندما بدأت في العزف. لعبت قطعة لهايدن بوضوح، لكن بقليل من التعبير، لقد شعرت بالخجل. عندما أنهت العزف، أطرى فيلتشانينوف بحماس ليس على عزفها ولكن على هايدن، خصوصاً القطعة الصغيرة التي عزِفت، وهو الأمر الذي راقها كثيراً على ما يبدو، فبدت ممتنة ومسرورة بذلك المدح الموجه ليس لها وإنما لهايدن، حتى أن فيلتشانينوف وجّه لها دون أن يشعر، نظرة كلها اهتمام ولطف، وهو يكاد يقول لها: «إنك فتاة شجاعة»، وظهر أن الجميع فهم هذه النظرة، خصوصاً كاترينا فيدويسويفنا. ثم قال دون أن يوجّه كلامه لشخص بعينه، وهو يستدير نحو الباب الزجاجي للشرفة:

- يا لها من حديقة جميلة، لنخرج إلى الحديقة.

- نعم، هيا بنا.

وانطلقت صرخات الفرح، وكأنها الرغبة الجامحة لدى الجميع.

وتفسح الجميع في الحديقة حتى موعد العشاء. أما السيدة زاخليبينين التي كانت ترغب في أخذ قسط من الراحة، فقد اضطرت هي الأخرى إلى الخروج، لكنها أخذت لها مكاناً برصيف الحديقة، واستسلمت لنوم خفيف، سادت الألفة بين فيلتشانينوف والفتيات. بعد ذلك، خرج ثلاثة شبان من المنازل المجاورة، الأول كان طالباً، والآخر ما زال تلميذاً، فاتّجه كل واحد نحو صديقته، حيث بدا أنهما جاءا من أجلهن، أما الثالث فكان في

العشرينيات من العمر، يبدو غامضاً وكئيباً، شعره أشعث، ويرتدي نظارات سميكة زرقاء، تحدّث بسرعة بصوت خافت، وهو عابس الوجه، مع كلٍّ من ماريا نيكيتشنا وناديجدا. كان يرمي فيلتشانينوف بنظرات قاسية، مُظهِراً من خلال ذلك أنّ من واجبه احتقاره بقوة.

اقترحت إحدى الفتيات المرور للَّعب دون تأخير. ولما تساءل فيلتشانينوف عن نوع اللعبة التي اعتدن عليها، أجبنه بأن هناك أنواعاً كثيرة، لكن هذا المساء سيلعبن لعبة الأمثال: يجلس الجميع بينما الشخص الذي عليه أن يحزر، يبتعد للحظة، فنختار إذن مثالاً معيناً، مثلاً: «من يسير ببطء يذهب بعيداً»، ثم ننادي على الشخص الذي سيحزر، وعلى كل واحد أن يوجِّه له جملة مهيأة سلفاً، الأول يقول جملة بها كلمة «الذي»، والثاني جملة بها كلمة «يسير»، وهكذا دواليك. المطلوب، هو أن يجمع تلك الكلمات ويشكِّل المثل.

- سيكون الأمر مسلياً. قال فيلتشانينوف.

- لا... لا... إنه أمر مملّ، أجابته مجموعة من الأصوات في الوقت نفسه.

فتدخلت ناديجدا:

- نلعب التمثيل أيضاً. أترى تلك الشجرة الضخمة، المُحاطة بالمقعد الحجري؟ إنها الكواليس حيث يمكث الممثلون: الملك، الملكة، الأميرة والفتى الأول، كلّ منهم يظهر عندما يرغب في ذلك ويرتجل، في بعض الأحيان تنجح اللعبة.

- هذا جيد، قال فيلتشانينوف مرة أخرى.

- لا ، هذا مملّ بشكل كبير. في البداية، تسير الأمور بشكل لا بأس به، لكن في النهاية يختلط كل شيء، لأن ما من أحد يعرف كيف يُنهي المسألة، ربما بحضورك قد يكون الأمر أحسن. كنا نعتقد أنك صديق بافيل بافيلوفيتش، لكننا نرى الآن أنه كان يتباهى بذلك فقط، أنا سعيدة بقدومك... بسبب قضية ما. قالت ذلك بجدية وإلحاح وهي تنظر إلى فيلتشانينوف، ثم سارعت بالالتحاق بماريا نيكيتشنا.

- سنلعب لعبة الأمثلة هذا المساء، همست إحدى الشابات لفيلتشانينوف في سرية تامة، وقد سبق بالكاد أن رآها، إنما لم يسبق لها أن وجهت إليه الكلام من قبل. سنهيئ مقلباً لبافيل بافيلوفيتش، وستكون أنت طرفاً فيه.

- آه، لكَمْ نحن سعيدات بوجودك معنا، فنحن هنا يقتلنا الملل، قالت له إحدى الفتيات اللواتي لم يسبق له أن انتبه لحضورهن، وهي فتاة ذات شعر أحمر، وبوجه جعلته الحرارة واللعب شديد الحمرة وهو ما أعطاه طابعاً كوميدياً.

صار بافيل بافيلوفيتش قلقاً أكثر فأكثر. أما فيلتشانينوف فأصبحت علاقته بناديجدا أكثر حميمية، فقد كفَّت عن النظر إليه من فوق وعن الارتياب منه، بل كانت تقفز، وتثرثر وشدَّت على يديه لمرتين. كانت سعيدة جداً، واستمرت في تجاهل بافيل بافيلوفيتش، وكأنه غير موجود. وكان فيلتشانينوف قد اقتنع أن هناك مؤامرة حقيقية ضدّ بافيلوفيتش، إذ بينما كانت ناديجدا وفريقها يجلبان فيلتشانينوف إلى جانبهما، كان فريق آخر تحت ذرائع

مختلفة يحاول جرّ بافيل بافيلوفيتش، لكن هذا الأخير كان يهرب، ويجري بكلّ قواه نحو فيلتشانينوف وناديجدا، وهو يدسّ رأسه الأصلع بينهما، محاولاً سماع ما يقولانه، وأخيراً أصبح يقوم بذلك دون تحفُّظ. كان تصرفه هذا ساذجاً بشكل مذهل. أما فيلتشانينوف فلم يستطِع التوقف عن النظر إلى كاترينا فيدويسويفنا بتمعُّن: وجهها بقي يعكس اللطف والرضا نفسهما، فوجودها إلى جانب الآخرين، وسماعها لما يقوله الضيف الجديد، جعلاها تبدو سعيدة. فهي نفسها المسكينة غير قادرة على الحديث بلباقة.

- كم هي لطيفة، أختك كاترينا فيدويسويفنا. قال فجأة فيلتشانينوف لناديجدا، بصوت منخفض.

- كاتي؟ هل يمكننا أن نكون ألطف منها؟ إنها ملاكنا جميعاً، وأنا أحبها. أجابته بحماس.

قدم العشاء على الساعة الخامسة. كان من الظاهر أنه لم يكن عشاء عادياً، وكانت هناك مصاريف زائدة من أجل الضيف الجديد. انضاف طبقان أو ثلاثة أطباق متميزة إلى القائمة المعتادة، أحدهما كان مدهشاً إلى درجة أن لا أحد استطاع تحديد محتواه. إضافة إلى الخمور العادية، قدّمت له قنينة من خمر توكي، اشتريت خصيصاً لهذه المناسبة، عند نهاية العشاء قدمت الشمبانيا. وكان زاخليبينين الأب، الذي شرب كأساً زيادة، في غاية البهجة ومستعداً للضحك على كلّ ما يقوله فيلتشانينوف، أما بافيل بافيلوفيتش فلم يعُد يتمالك نفسه، فقد حاول هو الآخر أن يثير الانتباه، فحكى نكتة أحدثت ضحكة مدوية في الجانب الآخر من

الطاولة، المقابل للمكان الذي يجلس فيه قرب السيدة زاخليبينين.

- بابا، بابا، لقد حكى بافيل بافيلوفيتش نكتة. صرخت الفتاتان في الوقت نفسه، ابنتا زاخليبينين.

- آه، هو أيضاً أضحى صاحب نكتة، ماذا يحكي إذن؟ سأل السيد زاخليبينين وهو يتوجّه بنبرة جادة وأبوية لبافيل بافيلوفيتش، ضاحكاً مسبقاً من النكتة المنتظرة.

- إنه يقول إننا نستحق كل الإعجاب.

- نعم، ولكن؟ . . .

لم يفهم بعد، لكن ابتسامة لطيفة ومتفهِّمة ارتسمت على محيّاه.

- لكن بابا كيف لا تفهم؟

وشرحوا له أخيراً.

- آه. . . جيد. سيجد أفضل في المرة القادمة. قال ذلك، وأصدر ضحكة مدوية.

- لا يمكننا أن نتوفر على جميع المواهب في الوقت نفسه، أليس كذلك يا بافيل بافيلوفيتش؟ صاحت ماريا نيكيتشنا بنبرة ساخرة.

ثم صرخت، وهي تنهض فجأة:

- آه يا إلهي، إنه يختنق، إنها حسكة سمكة.

وحدثت ضوضاء عامة، وهذا ما كانت تريده بالضبط ماريا نيكيتشنا، كان بافيل بافيلوفيتش قد ابتلع جرعة من الخمر من أجل إخفاء اضطرابه، ممّا سبب له اختناقاً بسيطاً، لكن ماريا نيكيتشنا

كان تُقسِم بأنها حسكة سمكة، وقد رأتها بأم عينيها، وأنها يمكن أن تتسبب في وفاته.

- اضربوه على ظهره. صرخ أحدهم.

- بالفعل ليس هناك أفضل من هذا. أعلن زاخليبينين. وارتمى الجميع على بافيل بافيلوفيتش: ماريا نيكيتشنا، الفتاة ذات الشعر الأحمر، وحتى السيدة زاخليبينين التي بدت مذعورة، الجميع يريد ضرب بافيل بافيلوفيتش على ظهره، أما هو فقد نهض من مكانه، وحاول الإفلات منهم، وطمأنتهم بأنه ابتلع قليلاً من الخمر فقط، وأن سعاله سيهدأ سريعاً، وأخيراً فهم الجميع أنه مجرد مقلب من ماريا نيكيتشنا.

- لقد تجاوزت الحدود. لقد ضايقت ضيفنا، قالت السيدة زاخليبينين، بنبرة حازمة، لكنها لم تتمكن من مواصلة الحديث، حيث انفجرت ضاحكة، وهو ما انتشر كالعدوى لدى الآخرين.

بعد العشاء، خرجوا لتناول القهوة في الحديقة.

- إنها أيام جميلة هذه السنة، قال زاخليبينين وهو يتأمل الحديقة، لكننا في حاجة إلى المطر. سأذهب الآن لأرتاح قليلاً، قضوا وقتاً ممتعاً، وأنت عليك بالتسلية أيضاً، أضاف وهو يضرب على كتف بافيل بافيلوفيتش.

عندما ذهب الجميع إلى الحديقة، أمسك بافيل بافيلوفيتش بفيلتشانينوف من ذراعه، وهمس:

- دقيقة من فضلك. وجره إلى الممرّ بعيداً عن الآخرين.

- لا ، اسمح لي هذه المرة. لن أدعك. . . قال بصوت خافت، وبغضب مكتوم، وهو يشدّ على ذراع فيلتشانينوف.

- ماذا؟ ما الأمر؟ قال فيلتشانينوف متعجباً.

ونظر إليه بافيل بافيلوفيتش، وهو غير قادر على الكلام، محرِّكاً شفتيه، مبتسماً من شدّة الغيظ.

- إلى أين أنتما ذاهبان؟ أين أنتما؟ كل شيء جاهز. نادتهم أصوات البنات بنفاد صبر واضح.

هزّ بافيل بافيلوفيتش كتفيه، ثم التحق بهم، ثم تبعه بافيل بافيلوفيتش مسرعاً.

قالت ماريا نيكيتشنا :

- أراهن على أنه طلب منك منديلاً . . . في المرة الأخيرة نسي منديله.

- إنه ينساه باستمرار. أضافت إحدى الآنسات.

- لقد نسي منديله، بافيل بافيلوفيتش نسي منديله، ماما بافيل بافيلوفيتش نسي منديله، ماما بافيل بافيلوفيتش أصيب بالزكام من جديد.

كانت الصرخات تأتي من كل جانب.

فقالت السيدة زاخليبينين:

- لماذا لم تقُل ذلك؟ أنت دائماً تعقِّد الأمور، بافيل بافيلوفيتش، عليك ألا تمزح مع الزكام، سأحضر لك منديلاً، لكن لماذا هو دائماً مصاب بالزكام؟ أضافت وهي سعيدة بإيجاد هذا السبب للالتحاق بهم.

صاح بافيل بافيلوفيتش:

- لدي منديلان.

لكن من المرجَّح أنها لم تفهم، إذ بينما كان بافيل بافيلوفيتش يحاول البقاء قدر الإمكان بالقرب من ناديجدا وفيلتشانينوف، جاءت الخادمة لاهثة وقد أحضرت له منديلاً.

- هيا بنا، لنلعب لعبة الأمثال، لعبة الأمثال.

انطلقت الصرخات من كل جانب، وكأنهم يجدون متعة كبيرة في هذه اللعبة.

اختاروا مكاناً حيث جلس الجميع. وكان على ماريا نيكيتشنا أن تبدأ اللعب. طلبوا منها أن تبتعد بالقدر الذي لا يمكنها سماع أي شيء. بعد اختيار المثل، وزعت الكلمات. كان المثل هو: الخطر كبير، لكن الرب رحيم.

وبعدما جاء دور الشاب ذي الشعر الأشعث والنظارات الزرقاء، احتاطوا منه كثيراً، أبعدوه لجهة الرواق، كما طلبوا منه إدارة وجهه للحائط. قَبِلَ الشاب هذه الإجراءات بنوع من التعالي والاستهجان، كما اعتبرها إهانة في حقه. عندما نادوا عليه لم يستطِع الإجابة، فأعادوا له الجُمل مرتين، فكر طويلاً وهو عابس الوجه، لكن دون جدوى، وكان المثل هو: الصلاة من أجل الإله وخدمة القيصر أجرٌ لن يضيع أبداً.

- هذا مثل بليد. دمدم الفتى وهو يجلس في مكانه.

- يا له من ملل. شكا صوت.

وجاء دور فيلتشانينوف، فأجبروه على الابتعاد أكثر هو الآخر، ولم يتمكن من اكتشاف المثل.

- يا له من ملل، يا له من ملل. وتكاثر الاحتجاج.

- أنا التي ستكتشف المثل. قالت ناديجدا.

- لا، لا، بافيل بافيلوفيتش هو الذي سيكتشف ذلك. إنه دور بافيل بافيلوفيتش. صاح الجميع بنشاط.

وذهبوا ببافيل بافيلوفيتش حتى حائط الحدود، حيث أدار وجهه نحو الزاوية، تحت حراسة الفتاة ذات الشعر الأحمر. وكان بافيل بافيلوفيتش قد هدأ بعض الشيء، حيث استعاد مزاجه، وأصبح مستعداً للمشاركة في اللعبة بانضباط كبير. هكذا بقي في مكانه بلا حراك كخشبة، وعيناه مثبتة في الحائط. كانت الفتاة ذات الشعر الأحمر تراقبه على بعد عشرين خطوة تقريباً، وهي تقوم بحركات ذكية في اتجاه الفتيات. من البديهي أن هناك شيئاً ما سيحدُث. الجميع ينتظر بفارغ الصبر. وفجأة قامت الفتاة ذات الشعر الأحمر بحركة، ففرّ الجميع.

- اجرِ، اجرِ. قالت عشرات الأصوات الخافتة لفيلشانينوف، قلقة لبقائه هناك.

- ماذا يحدث؟ ماذا هناك؟ سأل وهو يتبع الآخرين.

- اصمت، لا تصرخ، ما عليه إلا البقاء هناك وجهه للحائط، أما نحن فسنهرب. انظُر ناستيا هي الأخرى تهرب.

ناستيا الفتاة ذات الشعر الأحمر، هي الأخرى تهرب ملوحة بيديها، وكأن خطباً ما قد حدث. وصلوا أخيراً إلى الجانب الآخر

من الحديقة، وراء البركة المائية. عندما التحق بهم فيلتشانينوف، رأى كاترينا فيدويسويفنا وهي منخرطة في نقاش حادّ مع الآخرين، وبالخصوص مع ناديجدا وماريا نيكيتشنا.

- كاتيا عزيزتي، لا تقلقي. قالت ناديجدا لأختها وهي تقبِّلها.

- لن أخبر ماما، لكن أنا سأذهب لأنني أعتبر ذلك أمراً سيئاً. ماذا سيظنّ المسكين وهو هناك، ووجهه إلى الحائط؟

وغادرت، لكن الآخرين كانوا بلا رحمة. طلبوا من فيلتشانينوف أن يتجاهل بافيل بافيلوفيتش، عندما يلتحق بهم، وكأن شيئاً لم يحدث. «والآن، فلنلعب. ليحاول كلّ منّا الإمساك بالآخر»، صرخت بفرح الفتاة ذات الشعر الأحمر.

لم يلتحق بهم بافيل بافيلوفيتش إلا بعد مرور ربع ساعة على الأقل، حيث أمضى ثلث الوقت بلا حراك قرب الحائط. كان الجميع يلعب بحيوية، ويصرخ، ويضحك، وقد اشتدّ الغضب ببافيل بافيلوفيتش، فاتجه نحو فيلتشانينوف، وأمسك به من ذراعه:

- لحظة، من فضلك.

- يا إلهي، يا له من فتى مملّ بلحظاته هذه.

- إنه في حاجة إلى منديل مرة أخرى. قالت بعض الأصوات.

- هذه المرة أنت. . . أنت السبب. قال بافيل بافيلوفيتش، وقد اصطكّت أسنانه.

قاطعه فيلتشانينوف، ونصحه بهدوء أن يكون مرحاً أكثر: «أنت

سيئ المزاج، وهذا بالضبط ما يجعل الجميع يسخر منك، كلهم هنا يمرحون».

كان لهذه الكلمات وقعٌ خاص على بافيل بافيلوفيتش، حيث تغيَّر موقفه، وأصبح هادئاً، والتحق بالجمع في استسلام، وشاركهم اللعب. ومع مرور الوقت، استعاد طبعه المرح. عندما كان على كلٍّ واحد أن يختار فتاة، كان دائماً يختار الفتاة ذات الشعر الأحمر «الخائنة»، أو إحدى بنات زاخليبينين، وقد لاحظ فيلتشانينوف باندهاش شديد أن بافيل بافيلوفيتش لم يجرؤ على الحديث لناديجدا، رغم أنه يدور حولها باستمرار، يبدو أنه سلَّم بعدم الاكتراث الذي يقابله به الآخرون، وكأنه أصبح شيئاً عادياً، لكنهم في الأخير، نصبوا له مقلباً آخر. كانوا يلعبون لعبة «الغميضة»، وكان من المسموح به المرور من مكان إلى آخر من أجل الاختباء. بافيل بافيلوفيتش الذي كان مختبئاً تحت الشجرة، قرَّر فجأة الاختباء في المنزل. سمعت صرخات، وصعد المنزل بسرعة، حيث اندفع إلى القبو، فهو يعرف مخبأ وراء الدرج، وأراد الاختباء وراءه، لكن الفتاة ذات الشعر الأحمر تبعته، وهي تسير على رؤوس أقدامها، حيث دفعت الباب، وأغلقته بالمفتاح. كفّ الجميع عن اللعب، كما فعلوا في السابق، ثم فروا. فطن بافيل بافيلوفيتش إلى أنهم لا يبحثون عنه، فأخرج رأسه من النافذة. لم يكن هناك أحد. لم يجرؤ على المناداة، خوفاً من إيقاظ الآباء، أما الخادمة والطباخة فقد صدرت لهن الأوامر بألا يظهرن، وألا يُجِبْن على نداءات بافيل بافيلوفيتش. وحدها كاترينا فيدوسيفنا

كانت قادرة على تخليصه من هذا المقلب، لكنها عادت إلى حجرتها، حيث غالبها النعاس، فنامت. وأخيراً ظهرت الفتيات واحدة تلو الأخرى.

- بافيل بافيلوفيتش، لماذا لا تلتحق بنا، نحن نمرح، نحن نمثل، ألكسي إيفانوفيتش يلعب دور الفتى الأول.

- بافيل بافيلوفيتش، ماذا تفعل هناك؟ يا للعجب.

- ماذا يحدث؟ قالت السيدة زاخليبينين التي استيقظت، وقررت أخيراً أن تنزل إلى الحديقة من أجل حضور لعب «الأطفال»، في انتظار الشاي.

- انظري، إنه بافيل بافيلوفيتش، وأشاروا إلى إطار النافذة، حيث الوجه الشاحب من شدة الغضب، تلوّح منه ابتسامة مرتعشة.

- لست أدري أية متعة يجد في البقاء وحده، بينما الآخرون يمرحون؟ تساءلت العجوز، وهي تحرك رأسها.

في غضون ذلك حظي فيلتشانينوف بثقة ناديجدا، التي شرحت له سبب «فرحتها الخاصة بزيارته»، شرح ذلك تمّ بممرّ منفصل، أشارت ماريا نيكيتشنا لفيلتشانينوف بيدها بينما هو كان منهمكاً في اللعب مع الآخرين، ويشعر بحزن عميق، فأرشدته إلى مكان تواجد ناديجدا حيث تركته إلى جانبها وانسحبت.

قالت له ناديجدا بصوت منساب وسريع:

- أنا مقتنعة الآن، بأنك أنت لست الصديق الحميم لبافيل بافيلوفيتش، كما يحلو له أن يتبجَّح بذلك، أظنّ أنك الوحيد الذي

يمكن أن يسدي لي خدمة مهمة جداً بالنسبة إليّ. أخرجت العلبة من جيبها. أرجوك، وبإلحاح، أن تعيدها إليه في الحال، لأنني لن أوجِّه إليه الكلام ما حييت. يمكنك أن تقول له بأني كلّفتك بذلك، وتخبره أيضاً بألا يتجرأ أبداً على إعطائي أية هدية. وفيما يخص الباقي، سيعرفه من طريق الآخرين. هل تريد أن تلبي لي هذه الرغبة، وتنفّذ ما طلبته منك؟

- بحق السماء، أعفيني من هذه المهمة. صاح فيلتشانينوف، وهو يردّ إليها العلبة.

- كيف أعفيك؟ قالت، وقد اتَّسعت عيناها من فرط المفاجأة، إذ لم تكن تنتظر هذا الرفض. غابت عنها تلك الجرأة التي تحدّثت بها منذ قليل، وكادت تذرف الدمع. أما فيلتشانينوف فانفجر ضاحكاً.

- هذا ليس لأنني... كنت سأكون سعيداً... لكن لدي معه حساب عسير.

فقاطعته بقوة.

- أعرف أنك لست صديقاً له، وأنه كذاب. أنا لن أتزوجه أبداً، وعليك أن تعرف ذلك، حتى أنني لا أفهم كيف تجرأ على ذلك... لكن عليك أن تُعيد له سواره، ليس لدي حلّ آخر، أصرُّ على أن تُرجع له هذا السوار اليوم، وأن يتلقى هذه الصفعة اليوم، إذا تجرأ واشتكى لأبي، سيرى ما سيحدث له.

وفي هذه الأثناء، ومن وراء الشجيرات، ظهر فجأة الشاب ذو الشعر الأشعث والنظارات الزرقاء، وقال وهو غاضب جداً:

- عليك أن تُعيد إليه السوار، ولو من أجل حقوق المرأة، إذا كنت رجلاً في المستوى.

لكنه لم يستطع إتمام جملته، فقد أمسكت ناديجدا بذراعه، ودفعته بقوة، وهي تصرخ:

- يا إلهي، يا لك من غبي، يا بيدبوسيلوف. أغرب عن وجهي، ولا تسمح لنفسك بالتجسُّس عليّ. لقد أمرتك بأن تبقى بعيداً. وبدأت تضرب الأرض بقدميها، أما الآخر فقد سارع إلى الغوص وسط الشجيرات، لكنها واصلت المشي في الممر بغضب، وعيناها يتطاير منهما الشرر، ويداها مضمومتان إلى صدرها، ثم وقفت فجأة أمام فيلتشانينوف:

- لا يمكن أن تتصور كم هم بلهاء وأغبياء، تضحك من ذلك، لكن فكر بما أشعر به أنا.

- ليس هو؟ أليس كذلك؟ سألها فيلتشانينوف ضاحكاً.

ابتسمت ناديجدا، واحمرّت خجلاً.

- بالطبع ليس هو، كيف فكَّرت في ذلك؟ إنه صديقه، لكن لست أفهم كيف اختار صديقاً كهذا؟ أنا لا أفهم أنهم جميعاً يقولون إن لهذا الشاب مستقبلاً زاهراً، لكنني لا أفهم شيئاً ألكسي إيفانوفيتش، ليس لديّ أحد أعتمد عليه. آخر كلمة: هل ستُعيد له السوار؟

- نعم، أعطني إياه.

وقالت له بفرح، وهي تردّ له العلبة:

- آه كم أنت لطيف، بالمقابل سأغني لك المساء كله، إنني

أغني جيداً، عليك أن تعرف هذا، لقد كذبت منذ قليل، عندما قلت لك بأني لا أحب الموسيقى، آه ليتك تعود ولو لمرة واحدة، سأكون سعيدة، سأحكي لك كل شيء، كل شيء وكثيراً من الأشياء الأخرى، لأنك طيب جداً، طيب جداً ككاتيا.

وبالفعل، أثناء تناول الشاي، أدّت أغنيتين عاطفيتين بصوت ما زال يَلزمه الصقل، لكنه ممتع شيئاً ما، ومتَّزن للغاية.

كان بافيل بافيلوفيتش جالساً بشكل مريح قرب الأبوين، حول مائدة الشاي حيث السامور يغلي، وقد وضعت فوق المائدة الأواني الخزفية الآتية من «سيفر». من المرجّح أنه يتحدث لهم عن أشياء مهمة، لأنه بعد غد سيسافر لمدة تسعة أشهر، ويظهر أنه لم ينتبه إلى الشباب القادمين من الحديقة، وبالخصوص لفيلتشانينوف فهو الآن ليست لديه أية شكوك، كل شيء هادئ تماماً، لكن عندما تهيأت للغناء ظهر فجأة. تفادت ناديجدا الجواب عن سؤال طرحه عليها بشكل مباشر، لكنه لم يتضايق ولم يضطرب، بل أخذ مكانه وراء كرسيها، مُظهِراً بسلوكه هذا تملّكه لهذا المكان، وبأنه لن يتخلى عنه لأحد.

- والآن جاء دور ألكسي إيفانوفيتش، ماما، ألكسي إيفانوفيتش يريد أن يغني.

صاحت الفتيات، وهنّ يتحلقن حول البيانو أمام فيلتشانينوف، الذي أخذ مكانه بثقة في النفس، مستعداً للعزف والغناء، أما الأبوان فمرا من غرفة الأكل إلى الصالون برفقة كاترين، التي وزّعت الشاي.

اختار فيلتشانينوف أغنية عاطفية منسية لكلينكا.

عندما تفتحين شفتيك ساعة الفرحة،

ألطف من حمامة تتكلمين

غناها وهو يتوجه مباشرة لناديجدا، التي كانت تقف بجانبه. منذ مدة بعيدة فقَدَ قدراته الصوتية، لكن الآن هناك ما يبرهن على أنه كان له صوت جميل.

عندما كان طالباً، منذ عشرين سنة خلت، كان قد سمع لأول مرة هذه الأغنية مؤداة من طرف كلينكا بنفسه، أثناء حفل فني أقيم بدار أحد أصدقاء الملحن. أثناء ذلك اليوم، كان كلينكا جد مسرور وهو يعزف، ويغني أعماله المفضلة ومن ضمنها تلك الأغنية العاطفية.

هو الآخر كان قد بدأ يفقد قدراته الصوتية، لكن فيلتشانينوف احتفظ بذكرى الانطباع العميق، الذي تركته لديه تلك الأغنية بالضبط: أبداً لن يكون بمقدور فنان ماهر، أو مغني صالون أن يصل إلى ذلك المستوى الكثيف من التعبير. كان العشق يشتدّ مع كل جملة، وبسبب هذا التوتر المتصاعد، كانت أبسط مبالغة، وأبسط خطأ في الأسلوب، وهو ما يمكن للمرء إدراكه بالأوبرا، يمكن أن يحطِّم العمل بشكل كلي، ويُضعف أهدافه.

هذه المسألة السهلة ولكن الرائعة، تتطلب إلهاماً جدياً، عشقاً حقيقياً، وعلى الأقل إبداعاً شعرياً، حتى تتم تأديتها بشكل مضبوط وممتاز، عدا ذلك ستصبح تلك النية مبتذلة... فدون قدر كبير من الجدية والبساطة والحب، كان من المستحيل التعبير عن ذلك

الزخم من القوة والعاطفة المتوقدة، دون السقوط في استثارة النفور والاشمئزاز.

لقد تذكر فيلتشانينوف بأن سبق له أن أداها بشكل جيد. لقد تمكن تقريباً من مطابقة طريقة كلينكا، لكن هذه المرة ومنذ النغمة الأولى، منذ البيت الشعري الأول، أشعل الإلهام روحه، وجعل صوته يرتعش. مع كل كلمة كان الإحساس ينفجر بقوة وجرأة، فتردّدت الأبيات الأخيرة كآهات عشق، عندما غنى كانت عيناه المنقذتان مثبتتين على ناديجدا.

الآن، أنظر إلى عينيك بجرأة

أقرب شفتاي ولم أعد أقوى على سماعك

أريد تقبيلك، تقبيلك، تقبيلك.

ارتعشت ناديجدا من شدة الخوف، وعبَّرت عن ذلك بحركة تراجع خفيفة، فغمر الدم وجنتيها، في الوقت نفسه لمح فيلتشانينوف على وجهها المضطرب مرور تعبير سريع عن الموافقة.

جميع المستمعين بدوا مفتونين، ولكن في الوقت نفسه حائرين. فقد بدا لهم جميعاً أنه من المستحيل، بل من المُخجِل الغناء بهذا الشكل، رغم ذلك فهذه الوجوه التي تبرق تنتظر منه المزيد، على ما يظهر. لم يلحظ فيلتشانينوف سوى وجه كاترينا فيدويسويفنا الذي بدا له جميلاً.

تمتم العجوز زاخليبينين حائراً بعض الشيء:

- هذه هي الأغنية الرومانسية، أليست عنيفة؟ رائعة... لكن عنيفة.

- نعم إنها عنيفة. قالت زوجته.

لكن بافيل بافيلوفيتش لم يترك الفرصة تمرّ، حيث قفز كالمجنون، وأمسك ناديجدا من يدها، ودفع فيلتشانينوف بقوة، وشفتاه ترتعشان، فقال بصوت متقطع:

- دقيقة من فضلك...

وتراءى بوضوح لفيلتشانينوف أن الحالة التي صار عليها بافيل بافيلوفيتش، تجعل منه شخصاً قادراً على ارتكاب أفظع الحماقات. أخذه من يده، ودون أيّ حذر، وأمام اندهاش الجميع، قاده إلى الرصيف، ثم تمشّيا في الحديقة شبه المظلمة.

- افهمني، عليك أن ترافقني في الحال. قال بافيل بافيلوفيتش.

- أنا لا أفهم.

- أتتذكر أنك طلبت مني أن أحكِي لك كل شيء، أن أقول لك الكلمة الأخيرة بصراحة؟ أتذكر ذلك؟ إذن، ها قد حان الوقت... لنذهب.

قال بافيل بافيلوفيتش بحرارة، ولكن بصوت مختنق.

فكر فيلتشانينوف، ثم نظر إلى بافيل بافيلوفيتش، ثم وافق على الذهاب لإعلان رحيلهما، الذي فاجأ الوالدين، وأغضب الفتيات الشابات.

- على الأقل خُذا كأس شاي إضافي. قالت السيدة زاخليبينين بنبرة شاكية.

- لماذا أنت مضطرب هكذا؟ قال زاخليبينين متوجهاً إلى بافيل بافيلوفيتش، الذي حاول الابتسام، ولاذ بالصمت.

- بافيل بافيلوفيتش، لماذا تأخذ معك ألكسي إيفانوفيتش. قالت الفتيات بأنين، وهن يرشقنه بنظرات غاضبة. أما ناديجدا فقد رمته بنظرة شريرة، إلى درجة جعلته يحسّ بالحرج، لكنه لم يتنازل.

- أشكر بافيل بافيلوفيتش الذي ذكّرني بغرض ذي أهمية قصوى، غرض غاب عن ذهني كلياً. قال فيلتشانينوف وهو يشدّ على يد رب العائلة، ويودّع السيدة زاخليبينين وباقي الفتيات، وانحنى بشكل خاص أمام كاترينا فيدويسويفنا، وهو ما لاحظه الجميع.

- نشكركما على زيارتكما، سنكون سعداء برؤيتكما. ختم زاخليبينين.

- آه، سنكون سعداء جداً. قالت زوجته بحرارة وإصرار.

- عُدْ يا ألكسي إيفانوفيتش. صاحت الفتيات من أعلى الشرفة، بينما كان يصعد العربة ليجلس قرب بافيل بافيلوفيتش، وظنّ أنه سمع صوتاً خافتاً يقول: «عُدْ يا عزيزي ألكسي إيفانوفيتش».

«إنها الصغيرة ذات الشعر الأحمر»، قال محدِّثاً نفسه.

XIII

إلى أي جهة تميل الكفة؟

كان بإمكانه أن يفكر في الفتاة ذات الشعر الأحمر، لكنه كان غاضباً من نفسه. حيث كان الندم يفترس دواخله. زِدْ على ذلك أنه طوال ذلك اليوم الذي بدا رائعاً، لم يبرحه الحزن، قبل الغناء لم يعرف بعد كيف يتخلص من حزنه ذاك، وربما كان ذلك هو السبب وراء أدائه الجيد لتلك الأغنية.

«كيف انحدرت إلى ذلك المستوى، ونسيت كل شيء»، فكر بمرارة، لكنه سرعان ما أعطى لفكره مساراً آخر. بدا له أن التألم والأنين شيئان مخجلان، ومن الأفضل إفراغ غضبه على شخص آخر.

زمجر بغضب، وهو يرمي بافيل بافيلوفيتش بنظرة ملتوية:

- غبي.

ظلّ بافيل بافيلوفيتش صامتاً بإصرار، ربما كان يستعدّ ويستجمع أفكاره، وكتعبير عن نفاد صبره، كان في بعض الأحيان ينزع قبعته، ثم يمسح جبهته بمنديل.

«إنه يعرف»، قال فيلتشانينوف لنفسه بغضب.

لم يفتح بافيل بافيلوفيتش فمه سوى مرة واحدة، حين استفسر الحوذي إن كانت هناك عاصفة في الأفق.

- أكيد، فهذا بديهي، اليوم حانق وحار.

فعلاً لقد اشتدّ سواد السماء، وكان البرق يخدِّد الأفق. وصلوا المدينة حوالي الساعة التاسعة.

- سأرافقك إلى منزلك. صرح بافيل بافيلوفيتش، عندما اقتربوا من شقة فيلتشانينوف.

- أعرف ذلك، لكن أحذرك، أنا غير مستعدّ إطلاقاً، مزاجي سيئ للغاية.

- لن أمكث طويلاً.

عندما وصلا المدخل، انفصل عنه بافيل بافيلوفيتش، حيث دخل غرفة مارفا.

- ماذا كنت تفعل هناك؟ سأله فيلتشانينوف بصرامة بعد عودته. ثم اتجها نحو الشقة.

- لا شيء... العربة..

- لن أسمح لك بالشرب.

لم يتلقَّ أي جواب، أشعل فيلتشانينوف الشمعة، ثم جلس بافيل بافيلوفيتش في الحال فوق الكنبة، أما فيلتشانينوف فتسمر أمامه بوجهه العابس. وقال بغيظٍ مكتوم:

- أنا أيضاً وعدتك بأن أقول كلمتي «الأخيرة»، إليك كلمتي. أعتقد أن كل شي قد انتهى بيننا، لم يعد هناك ما يُقال. أتسمعني؟

لا شيء ومن الأفضل أن ترحل في الحال، وأن أغلق الباب وراءك.

- فلنصفِّ حساباتنا، يا ألكسي إيفانوفيتش. أعلن بافيل بافيلوفيتش، وهو ينظر إليه في عمق عينيه بلطافة بالغة.

أجابه فيلتشانينوف:

- نصفي حساباتنا؟ يا له من تعبير غريب، أية حسابات؟ هل هي «الكلمة الأخيرة»، التي وعدتني بقولها منذ لحظات؟

- بالضبط.

- لم يعد بيننا حساب لتصفيته، لقد انتهى كل شيء منذ مدة. أعلن فيلتشانينوف بكبرياء.

- أتعتقد ذلك؟ سأله بافيل بافيلوفيتش بنبرة الواثق من نفسه، وهو يقوم بحركة غريبة حيث ضمّ يديه إلى صدره.

لم يجبه فيلتشانينوف، وبدأ يمشي طولاً وعرضاً في البيت، وقلبه يئن باسم «ليزا».

- ما هي الحسابات التي تريد أن نصفيها؟ قال بعد صمت طويل حيث لم يكُف عن متابعته بعينيه، ويداه مشدودتان إلى صدره.

- لا تذهب إلى هناك، تمتم بافيل بافيلوفيتش بنبرة نائحة ثم نهض فجأة.

صاح فيلتشانينوف بضحكة شريرة:

- كيف؟ أهذا كلّ ما يقلقك؟ يمكن القول بأنك تدهشني، اسمع أظنّ أنه لم يسبق لي أن نزلت إلى هذا المستوى المنحطّ كما

فعلت اليوم، أضاف بلهجة استهجان، ثم ما لبثت أن تبدّلت ملامح وجهه بشكل مفاجئ، أولاً بقبولي مرافقتك، ثانياً بتصرفي على ذلك النحو، كان ذلك موقفاً سخيفاً ومثيراً للشفقة. لقد تدنّست ونسيت كبريائي عندما قبلت في غفلة من نفسي. . . ماذا بعد ذلك؟ استجمع قواه فجأة، اسمع لقد أخذتني اليوم على حين غرة، كنت حانقاً ومريضاً. . . ما الذي يجبرني على تبرير كل ذلك؟ أنا لن أرافقك إلى هناك مرة ثانية، وأؤكد لك أن ليس هناك ما يثيرني. ختم بصرامة.

- أهذا صحيح؟ حقاً صحيح؟ صاح بافيل بافيلوفيتش دون إخفاء فرحته. ونظر إليه فيلتشانينوف بازدراء، وواصل المشي. ولم يتمكن من منع نفسه من القول:

- يبدو أنك لا تتوانى عن بلوغ سعادتك، مهما كان الثمن.

- نعم. أكد بافيل بافيلوفيتش بسذاجة وبصوت عذب.

«لا يهمني في شيء أن يكون مجرد بهلوان، أن يكون شرّه مجرّد حماقة، أنا لا يمكنني أن أمنع نفسي من كراهيته، ولو أنه ليس أهلاً لذلك»، فكر فيلتشانينوف.

قال بافيل بافيلوفيتش بابتسامة متواضعة:

- أترى؟ أنا «زوج أبدي»، لقد تعلّمت منك هذه العبارة منذ مدة، ألكسي إيفانوفيتش، عندما كنت تسكن بالقرب منا، هذه السنة حفظت الكثير من تعابيرك. في المرة السابقة عندما قلت «الزوج الأبدي» فهمت.

ودخلت مارفا وهي تحمل قنينة شمبانيا وكأسين.

- اسمح لي، ألكسي إيفانوفيتش، أنت تعرف أنني لا يمكنني الاستغناء عن هذا، لا تعتبر ذلك وقاحة من طرفي، ولا تنظر إليّ سوى كرجل غريب، لا كرجل يستحق معرفتك.

قال فيلتشانينوف باشمئزاز:

- جيد، لكن أؤكد لك أني غير مستعد بتاتاً.

أسرع بافيل بافيلوفيتش بالقول:

- نعم، نعم، حالاً. كأس واحد لا غير، لأن حلقي...

أفرغ كأسه بشراهة بجرعة واحدة، وهو ينظر بلطف إلى فيلتشانينوف. خرجت مارفا.

- يا للعار. تمتم فيلتشانينوف.

- إنها غلطة الصديقات الصغيرات، زِدْ على ذلك أنهن شابات جميلات... يتسلين... حتى أن الأمر كان ممتعاً، سأصير عبداً لها، سوف لن تشعر بالوحدة، ستكون محترمة... العالم كله سيكون من حولها... ستتبدل كلياً.

«رغم ذلك عليّ أن أعيد له السوار»، فكَّر فيلتشانينوف وهو يتلمّس العلبة داخل جيبه بغضب.

- قلت لي منذ لحظة بأنني كنت مصمماً على أن أكون سعيداً. يجب أن أتزوج، واصل بافيل بافيلوفيتش بلطف وبنبرة من يأتمنه على السر، وإلا ماذا سيكون مصيري؟ انظر بنفسك، مشيراً إلى القنينة، هذا ليس سوى القليل من عيوبي. أنا لا يمكنني العيش بدون زواج، لا يمكنني العيش، إذا لم أعثر على ثقتي في نفسي كما كنت سابقاً، إذا كنت مؤمناً سأبعث من جديد.

«لكن لماذا تحكي لي كل هذه الأشياء؟»، كاد فيلتشانينوف أن يصيح كاتماً ضحكته، لكنه تراجع.

- اشرح لي لماذا أخذتني بالقوة إلى هناك؟ ما جدوى حضوري؟

- لأعرف...

وفجأة بدا بافيل بافيلوفيتش محرَجاً.

- لتعرف ماذا؟

- التأثير... أتفهم ألكسي إيفانوفيتش، لم يمرّ سوى أسبوع حيث حاولت... هناك... (وبدا محرَجاً أكثر فأكثر) أمس، التقيتك وقلت مع نفسي، «لم يسبق لي أن رأيته وسط غرباء مع رجال آخرين غيري» فكرة بليدة، أحسّ بذلك الآن، بليدة وسطحية، كان الإغراء قوياً. هذا هو طبعي السيئ. ورفع فجأة رأسه واحمرّ وجهه.

«هل يقول فعلاً كل الحقيقة؟»، تساءل فيلتشانينوف مبهوراً، ثم قال:

- وماذا بعد؟

ابتسم بافيل بافيلوفيتش برضا ماكر:

- إنها مجرد مستملحات أطفال، إنه خطأ الفتيات، اغفر لي تصرفي الغبي تجاهك اليوم، ألكسي إيفانوفيتش، هذا لن يتكرر مستقبلاً.

- لكن، لن أرافقك إلى هناك أبداً. قال فيلتشانينوف.

- تلك رغبتي أنا أيضاً.

أحسّ فيلتشانينوف بلحظة غضب.

- لكنني لست وحيداً في هذا العالم. قال بانزعاج.

احمرّ وجه بافيل بافيلوفيتش من جديد.

- يؤلمني أن أسمع منك هذا الكلام، ألكسي إيفانوفيتش، أنا أحترم كثيراً ناديجدا فيدوسويفنا، ثِقْ بي.

- اسمح لي، أنا مستغرب من ثقتك الكبيرة بي، رغم أنك تعلم بقدرتي الكبيرة على الإغراء.

- ما عزَّز ثقتي... بالضبط هو أن ذلك وقع... بعد... كل ما وقع في الماضي.

- أنت إذن، ما زلت تعتبرني رجلاً شريفاً للغاية؟ فتوقف فيلتشانينوف فجأة. في لحظة أخرى كانت سذاجة سؤاله ستبدو له مباغتة.

- أنا اعتبرتك دائماً كذلك. قال بافيل بافيلوفيتش وهو يُخفِض عينيه.

- نعم... نعم... ليس ذلك قصدي... ليس بذلك المعنى... فما كنت أريد قوله هو أنه رغم كل الاحتياطات...

- نعم، رغم كل الاحتياطات.

- وعندما كنت ذاهباً إلى بطرسبرغ؟ لم يتوانَ فيلتشانينوف عن طرح هذا السؤال، وهو ينتبه إلى كون فضوله كان بارزاً.

- عندما كنت ذاهباً إلى بطرسبرغ، كنت أعتبرك رجلاً شريفاً

للغاية أيضاً، كان لدي دائماً تقدير كبير لك، ألكسي إيفانوفيتش.

رفع بافيل بافيلوفيتش عينيه، وهو ينظر إلى خصمه مباشرة، دون أدنى اضطراب، فجأة انتاب الخوف فيلتشانينوف، لم يكن يرغب في انفجار الوضع، ولا أن تتعدى الأمور الحدود، خصوصاً من جانبه.

قال بافيل بافيلوفيتش، وكأنه قرَّر ذلك فجأة:

- أنا أحببتك كثيراً يا ألكسي إيفانوفيتش، طوال تلك السنة بـ T. . . كنت أستلطفك، أحبك ألم تلاحظ ذلك.

قال ذلك بصوت مرتعش ممّا خلق الرعب لدى فيلتشانينوف، لم أكن أساوي شيئاً أمامك كي أجعلك تلاحظ ذلك وربما هذا أفضل. خلال تلك السنوات التسع الطويلة كنت دائماً أتذكرك لأني لم أكن أذكر سنة مثل تلك السنة (وبرقت عينا بافيل بافيلوفيتش بشكل غريب)، واحتفظتُ بالكثير من تعابيرك، الكثير من أفكارك، كنت أتذكرك دائماً كرجل متوقّد، قادر على منح الأحاسيس النبيلة، مثقف، مثقف جداً، مالك لأفكار «الأفكار العظيمة هي إلى حدّ ما ثمرة قلب كبير، وليست نتيجة ذكاء كبير»، قلتها بنفسك، لكن ربما أنت لم تعُد تتذكر الأمر، أما أنا فاحتفظت به وحفظته، كنت دائماً أرى فيك رجلاً عاطفياً، كنت دائماً أعتمد عليك رغم كل شيء.

وفجأة بدأ ذقنه يرتعش، كان فيلتشانينوف مرعوباً وكان من الضروري وضع حدٍّ لهذه النبرة غير المتوقّعة.

- كفى أرجوك، بافيل بافيلوفيتش، تمتم محمراً، منزعجاً ومعبِّراً عن نفاد صبره، ثم صرخ فجأة:

- لماذا؟ لماذا تلاحق شخصاً مريضاً متألماً وتقريباً يهذي؟ لماذا تجرّه إلى الظلمات؟ بينما كل هذا مجرد وهم، سراب، كذب مخجل، نعم... المهم والأكثر إثارة هو: نقص في التروي، كل هذا سخيف، نحن الاثنين شخصان فاجران؛ دنيئان نحن مخلوقات القبو. أتريد، أتريد أن أبرهن لك في الحال على أنك لست فقط لا تحبني، وإنما تكرهني بكل جوارحك. وأنك تكذب بدون أن تعرف ذلك؟ أخذتني إلى هناك ليس بهدف اختبار خطيبتك (وهي فكرة بليدة ومثيرة للسخرية)، لكن لأنك عندما رأيتني البارحة، وببساطة انتابك الغضب وأحضرتني لتقدِّمها لي وتقول لي: «انظُر لها، ستكون لي، حاول أن تأخذها مني»، تحدّيتني، ربما هي لم تنتبه لذلك، لكن الأمور كانت هكذا، هكذا كنت تحسّ بها. والحال، لكي يرفع الإنسان هذا النوع من التحدي عليه أن يتحلى بالكره. وأنت تكرهني.

كان يمسح الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يرمي هذا الحمل بصوت لاهث، مذلولاً ومعذباً بسبب وعيه بانحداره لمستوى بافيل بافيلوفيتش.

- كنت أسعى للصلح بيننا، ألكسي إيفانوفيتش. قال فجأة بصوت خافت وسريع، وذقنه ترتعش من جديد.

وتملّك فيلتشانينوف غضب شديد، وكأنه لم يسبق له أن تعرَّض لمثل هذا الاستفزاز، وصاح:

- أكرِّر لك مرة أخرى أنك تطارد شخصاً مريضاً، مجروحاً، تطارده لكي تنتزع منه الكلمة التي تبحث عنها دون جدوى، لكن

نحن... نعم نحن ننتمي إلى عالمين مختلفين... افهم هذا... ثم هناك قبر بيننا... قال بصوت مختنق ثم تمالك نفسه.

- لكن كيف لك أن تفهم (اصفرّ وجه بافيل بافيلوفيتش، واهتزّ بقوة)، كيف لك أن تفهم ما يعنيه هذا القبر بالنسبة إلي... هنا...

صرخ، وهو يتقدّم نحو فيلتشانينوف، ضارباً صدره بحركة مثيرة للسخرية، لكن قوية:

- أعرف ما يعنيه ذلك القبر الصغير، إنه هناك بيننا نحن الاثنين، أنا وأنت، كل واحد في طرف، لكن هناك الكثير بجانبي... الكثير.. الكثير... الكثير... الكثير...

تمتم وكأنه يهذي مواصلاً ضرب صدره.

وفجأة سمع رنين جرس قوي، أعادهما إلى نفسيهما، رنين قوي وكأن صاحبه يريد نزع الخيط الرابط.

- لا... لا... لا ينبغي أن يقوم أحدهم بدقّ الجرس بهذا الشكل بمنزلي. قال فيلتشانينوف بحرجٍ.

- الأمر لا يمكن أن يحدث عندي أنا أيضاً. تمتم بافيل بافيلوفيتش، وقد استرجع قواه، وعاد إلى وضعه السابق. اتجه فيلتشانينوف غاضباً نحو الباب.

- السيد فيلتشانينوف إن لم أكُن مخطئاً؟ قال صوت شاب قادم من البهو، صوت قوي ومليء بالثقة.

- ماذا تريد؟

واصل الصوت بشكل حازم ورنان:

- أعرف جيداً أن السيد تروسوتسكي موجود بمنزلكم، وعليّ مقابلته.

كان فيلتشانينوف يتمنى أن يرمي بهذا الشخص الواثق من نفسه بركلة إلى السلم، لكنه فكّر للحظة، وتركه يدخل.

- ادخُل، هذا هو السيد تروسوتسكي.

XIV
ساشينكا ونادينكا

كان الشاب يبلغ من العمر سبع عشرة سنة أو أقل من ذلك، حتى أن وجهه الجميل الذي ينمُّ عن فخر وثقة في النفس، يبدو طفولياً. أنيق الهندام، أو على الأصح كانت ملابسه مؤاتية جداً. قامته كانت تحت المتوسط، شعر أسود كثيف، خصلاته متطايرة بفوضوية. عيناه الكبيرتان والغامقتان والجسورتان تمنحان وجهه تعبيراً خاصّاً. أنفه عريض شيئاً ما وخانس، ولولا هذا الأنف لكان الفتى أجمل.

دخل كشخص مهم، ثم قال وهو يضغط على الكلمات:

- أعتقد أني أتحدث إلى السيد تروسوتسكي.

وهو ما يعني بالنسبة إليه أنّ الحديث مع المدعو تروسوتسكي لا يحمل أي شرف، ولا أي سرور.

بدا فيلتشانينوف يفهم الوضع. أما بافيل بافيلوفيتش فقد بدا تقريباً وكأنه يتنبأ بشيء، حيث عكس وجهه قلقاً ما، لكنه قام بمجهود لتمالك نفسه. قال باحترام تام:

- لم يحصل لي شرف التعرف عليك، أعتقد أنه ليس هناك شيئاً مشتركاً بيننا.

- ابْدأ أولاً بالاستماع إلي، ثم بعد ذلك عبِّر عن رأيك. قال الشاب بنبرة واثقة وبوقار مصطنع، فوضع نظارته المصنوعة من الصدف، المتدلية من خيط حريري ثم تفحّص بتمعُّن زجاجة الشمبانيا. لما انتهى من ذلك طوى نظارته بهدوء، وقال لبافيل بافيلوفيتش:

- ألكسندر لوبوف.

- ومَن يكون هذا الألكسندر لوبوف؟

- أنا. ألا تعرفني؟

- لا.

- ليس من الضروري أن تعرفني على أية حال، لقد جئت من أجل قضية تهمّك، لكن اسمح لي أولاً بالجلوس، أنا متعب.

- اجلس، قال فيلتشانينوف، لكن الشاب كان قد جلس دون انتظار الإذن. ورغم الألم الحادّ الذي كان يحسّ به فيلتشانينوف بصدره إلا أنه كان مهتماً جداً بهذا الشاب الوقح، لقد بدا له بعض الشَّبه البعيد جداً بين هذا الوجه الوردي الطفولي الجميل وناديجدا.

- اجلس أنت أيضاً. قال الشاب لبافيل بافيلوفيتش، وهو يشير إلى الكرسي المقابل بحركة من رأسه، تنم عن عدم الاكتراث.

- سأبقى واقفاً.

- ستتعب، أما أنت يا سيد فيلتشانينوف، بإمكانك البقاء على ما أعتقد.

- ليس لديّ أي سبب للخروج، فأنا هنا في منزلي.

- كما تريد. عليّ أن أقرّ بأنّي أفضِّل أن تحضر لما سيدور بيني وبين هذا السيد. لقد حدّثتني عنك ناديجدا بشكل إيجابي جداً.

- صحيح؟ ومتى قالت لك ذلك؟

- مباشرة بعد رحيلك. أنا أيضاً جئت من هناك. إليكما الموضوع إذن: السيد تروسوتسكي (وتوجه إلى بافيل بافيلوفيتش الذي بقي واقفاً)، ناديجدا فيدويسويفنا وأنا (كانت الكلمات تخرج ببطء من بين أسنانه)، نحب بعضنا بعضاً منذ مدة طويلة، وتعاهدنا على الزواج. وأنت تشكِّل عقبة في طريقنا. لهذا أتيت لأطلب منك بأن تنسحب. هل أنت مستعدّ لقبول هذا العرض؟

كاد بافيل بافيلوفيتش أن يسقط أرضاً، اصفرّ وجهه، لكن ابتسامة خبيثة شوَّهت شفتيه.

- لا، قطعاً.

- عجباً، عجباً. قال الفتى، وهو يتعاظم فوق الكرسي، واضعاً ساقاً على ساق.

فأضاف بافيل بافيلوفيتش:

- أنا لا أعرف حتى الشخص الذي أتحدّث إليه، أعتقد أنه لم يعُد بيننا ما يُقال.

بعد أن قال هذه الكلمات، رأى أنه من حقّه الآن أن يجلس.

- لقد نبَّهتك إلى أنك ستتعب (لاحظ الشاب بعدم اكتراث)، لقد قلت لك سابقاً بأن اسمي لوبوف، وأن ناديجدا فيدويسويفنا

وأنا سنتزوج. إذن، لا يمكنك أيضاً أن تدّعي بأنه ليس بيننا ما يُقال، فالأمر لا يتعلق بي فقط، ولكن بناديجدا فيدويسويفنا التي تطاردها دون حياء. هذا السبب لوحده يبرر لقاءنا هذا.

أخرج كل هذا من بين أسنانه بغرور، وهو يكاد ينطق كلماته بوضوح، ففتح نظارته من جديد، مكملاً حديثه وهو يتظاهر بتفحّص شيء ما.

- اسمح لي أيها الفتى، حاول بافيل بافيلوفيتش أن يقاطعه غاضباً، لكن «الفتى» أوقفه في الحال.

- في ظروف أخرى، كنت سأمنعك من مناداتي «الفتى»، ولكن حالياً وعليك أن تعترف بهذا، شبابي بالضبط هو ما يميِّزني عنك، اليوم مثلاً عندما قدَّمت السوار كهدية، كنت تتمنى أن تكون أكثر شباباً.

«أوه... أوه... الأفعى الصغيرة»، همس فيلتشانينوف.

وأجابه بافيل بافيلوفيتش بوقار:

- على أية حال، أنا أعتبر الأسباب التي ذكرت أسباباً مشكوكاً فيها وغير ملائمة ولا كافية، لكي نواصل نقاشنا. وأرى أن كل هذا مجرد صبيانيات لا قيمة لها. غداً سأتصل بالمحترم فيدوي سيمنوفيتش لمعرفة الأخبار، أما الآن فأرجوك أن تتركني وشأني.

صرخ المراهق موجهاً كلامه إلى فيلتشانينوف، وهو غير قادر على الحفاظ على نبرته الهادئة:

- انظر إلى الرجل، لم يكفِه أنهم طردوه من هناك وهم

يستهزئون منه، وإنما يريد أن يخبر الأب بكل شيء. ألا تظهر بهذه الطريقة، أيها الرجل العنيد، بأنك تريد الحصول على الفتاة بالقوة، تريد أن تشتريها من أبويها، اللذين أصيبا بالخرف، لكن الطبيعة الوحشية للمجتمع لا تزال تحتفظ لهما بسلطتهما على تلك الفتاة المسكينة؟ ألم تظهر احتقارها لك بما يكفي؟ ألم تُعِد لك هديتك؟ سوارك؟ ماذا تريد، إذن؟

- لم يُعِد لي أحد السوار، وهذا غير ممكن. ارتعش بافيل بافيلوفيتش.

- قلت غير ممكن؟ ألم يُعِد لك السيد فيلتشانينوف السوار؟

«اللعنة عليه»، فكر فيلتشانينوف، ثم قال:

- بالفعل، لقد كلّفتني ناديجدا فيدويسويفنا بأن أرجِع لك هذه العلبة، لم أرد أخذها، لكنها أصرّت. أنا محرج جداً.

فأخرج العلبة من جيبه، وبحرج شديد وضعها أمام بافيل بافيلوفيتش، الذي بقي مشدوهاً.

- لماذا لم تُعِدها إليه؟ سأله الفتى بنبرة صارمة.

- لم يكن لدي وقت. أجابه فيلتشانينوف غاضباً.

- غريب.

- ماذا؟

- أعترف بذلك، هذا أمر غريب رغم أنني مستعد للتسليم بأن هناك سوء تفاهم.

انتابت فيلتشانينوف رغبة شديدة في النهوض من مكانه ومعاقبة

هذا الطفل، لكنه لم يستطِع الحفاظ على جديته، وانفجر ضاحكاً أمامه. شرع الفتى في الضحك هو الآخر. أما بافيل بافيلوفيتش فلم يضحك. لم يستطع فيلتشانينوف رؤية نظرته المرعبة، ليفهم أن بافيل بافيلوفيتش بلغ درجة ما من الخطورة، لكن رغم أنه لم يلحظ ذلك، فإن فيلتشانينوف أحسَّ بأن عليه مساندة بافيل بافيلوفيتش.

قال بنبرة هادئة:

- اسمع يا سيد لوبوف، دون الدخول في التفاصيل، فعندما تقدّم بافيل بافيلوفيتش لطلب يد ناديجدا فيدويسويفنا، فهو بداية يتوفّر على ميزة كونه معروفاً جداً من طرف العائلة المحترمة، ثم ينبغي أخذ وضعه الاجتماعي الممتاز بعين الاعتبار، وأخيراً ثروته. إذن، من الطبيعي أن يفاجَأ بظهور غريم مثلك: يمكن أن تتوفر على أحسن الخصال، لكنك شاب، وهو ما يجعله لا يعتبرك منافساً جدياً. لذلك، فهو على حق عندما طلب منك أن تُنهي الأمر.

- ماذا تقصد بـ «شاب»؟ أنا بلغت من العمر تسع عشرة سنة منذ شهر، وكان عليّ بحسب القانون أن أتزوج منذ مدة، هذا كل ما في الأمر.

- لكن من هو الأب الذي سيوافق على إعطائك ابنته الآن، ولاحقاً؟ إذا لم تكن مليونيراً أو منقذاً للبشرية؟ إن شاباً في مثل سنّك لا يمكنه أن يكون قادراً على تحمُّل مسؤولية أفعاله، بينما أنت تدّعي أنك قادر على ضمان مستقبل شخص أصغر منك. ألا ترى بأنّ هذا تصرف غير لائق؟ إذا سمحت لنفسي بالحديث إليك وبهذه الصراحة، فلأنك طلبت مني شهادة ضدّ بافيل بافيلوفيتش.

– آه، اسمه بافيل بافيلوفيتش، لاحظ لوبوف. لماذا تصورت أن اسمه فاسيلس بيتروفيتش؟ ثم واصل موجِّهاً كلامه لفيلتشانينوف. لم تفاجئني كلماتك قط، كنت أعرف أنكما متشابهان. ورغم ذلك الأمر، فقد صوروك لي كرجل ذي فكر عصري. على أية حال كل هذا لا أهمية له. أنا لم أقُم بأي عمل غير شريف، كما سمحت لنفسك بالقول، بل الأمر مخالف للحقيقة، كما سأبرهن لك عن ذلك. أولاً تواعدنا على الزواج، ثم تعهدت أمام شاهدَين بأنه إذا ما أحببت شخصاً آخر، أو إذا ندمت على زواجنا، وأرادت قطع هذه العلاقة، سأعترف لها كتابة بأنني ارتكبت خيانة في حقها، ومنحها جميع الأسباب التي تمكِّنها من الطلاق، لكن ليس هذا كل شيء، في حالة ما إذا تراجعت فيما بعد، ورفضت منحها تلك الوثيقة، سأعطيها كضمانة يوم زواجنا رسالة دَين بمائة ألف روبل. هكذا إذن، إذا أصررت على رفض الطلاق، يمكن أن تقدم الوثيقة، وتتسبب في سجني. كل شيء مخطط له، وهكذا لن أرهن مستقبل أي كان، هذه هي النقطة الأولى.

قال فيلتشانينوف:

– أراهن على أن الشخص الآخر... ما اسمه... بريدوسيلوف... نعم... بريدوسيلوف هو الذي رسم هذه الخطة.

– ها.. ها.. ها.. أصدر بافيل بافيلوفيتش ضحكة شريرة.

– لماذا يضحك هذا السيد؟ نعم، لقد أصبت... هذه فكرة بريدبوسيلوف، إنها خطة جيدة، أعترف بذلك. فالتشريعات العبثية مشلولة كلياً، وأنا مصرٌّ على حبها إلى الأبد. بالطبع، هي تسخر

من جميع هذه الاحتياطات، لكن ذلك مهم جداً، عليك أن تعترف بأنه تصرف نبيل، لن يقدم عليه أي كان.

– في رأيي، المسألة ليست فقط غير نبيلة، بل هي خبيثة جداً.

قال فيلتشانينوف ذلك، فهزّ الفتى كتفيه، وقال بعد برهة صمت:

– أكرِّر لك، أنت لا تبهرني بكلامك. منذ زمان لم تعُد هذه الأشياء تفاجئني. كان من الممكن أن يقول لك بريدبوسليوف بشكل واضح، أن عدم فهمك للوقائع الأكثر بديهية نابع من كون أحاسيسك وأفكارك قد أفسدتها أولاً طريقة عيشك العبثية، وثانياً عطالته لمدة طويلة، وفضلاً عن ذلك، من الممكن ألا نتفاهم: فقد حدثوني عنك بإيجابية، أنت تبلغ من العمر خمسين سنة أليس كذلك؟

– من فضلك، لنعُد إلى قضيتنا.

– اعذر فضولي ولا تقلق، فقد سألتك دون خلفية. أواصل إذن: أنا لست قطعاً مليونير المستقبل كما كنت تتخيل منذ قليل، أنا هنا كما تراني، لكني متأكد من مستقبلي بشكل مطلق، لن أكون بطلاً ولا منقذاً للبشرية، لكني سأؤمّن حياة زوجتي وحياتي حالياً، أنا لا أملك شيئاً، هذا صحيح، لقد تربيت في أحضان عائلتها منذ طفولتي.

– كيف ذلك؟

– نعم، أنا ابن أحد أقارب زوجة زاخليبينين. لم تكن لدي سوى ثماني سنوات، عندما توفي أبي، فتبناني العجوز وفيما بعد أرسلني إلى الثانوية. كان رجلاً شجاعاً.

- أعرف ذلك.

- نعم، لكن رأسه كان مليئاً بالأفكار القديمة. إضافة إلى كونه رجلاً طيباً. لقد تخلّصت من وصايته منذ مدة، لأنني أريد أن أكسب قوتي بنفسي، وأن لا أكون مَديناً لأحد بشيء.

- منذ متى، إذن؟ سأل فيلتشانينوف بفضول.

- منذ أربعة أشهر.

- كل شيء واضح، إذن: أصدقاء طفولة، هل لديك عمل؟

- نعم، أعمل عند موثّق، خمسة وعشرون روبلاً في الشهر، هذا ليس سوى أجر مؤقت، لكن عندما وضعتُ طلبي، لم أكن أربح الكثير. كنت أشتغل بإدارة السكك الحديد، مقابل عشرة روبلات. كل هذا ليس سوى مرحلة مؤقتة.

- إذن، ها قد قدّمت طلبك للعائلة.

- نعم، طلب رسمي، منذ ثلاثة أسابيع.

- وماذا بعد؟

- ضحك العجوز في البداية، ثم خاصم ابنته وسجنها، لكن ناديجدا كانت شجاعة، أضف إلى هذا أن الأب كان غاضباً مني، لهذا لم نتمكن من النجاح في خطوتنا، فأنا خالفت رغبته، وغادرت الإدارة التي وظّفني بها بعد أربعة أشهر، كان ذلك قبل اشتغالي بالسكك الحديد. إنه عجوز ممتاز، بسيط ومرح، لكن إذا رأيته بمكتبه فهو شخص آخر: جوبتير حقيقي، وبالطبع أفهمته بأن طرقه لم تعُد تعجبني، لكن المذنب الحقيقي كان هو نائبه: هذا

الرجل اشتكى من وقاحتي، وقد سبق لي أن قلت له بأنه لم يكن مثقفاً بالشكل الكافي. ثم تخلصت منهما، وها أنا أشتغل عند الموثق.

- هل كان أجرك جيداً بتلك الإدارة؟

- لم أكن سوى فائض، العجوز زاخليبينين هو الذي كان يؤدّي أتعابي. كما سبق أن قلت، فهو رجل طيب جداً، لكن سأواصل الإصرار: خمسة وعشرون روبلاً غير كافية. لذلك آمل في الالتحاق بإدارة ممتلكات الكونت زاغبلفسكي، الذي تمرّ أموره بوضعية صعبة جداً. سأبدأ آنذاك بثلاثة آلاف روبل، وإذا لم يتمّ ذلك سأصبح محامياً. هناك حاجة إلى رجال نشيطين الآن. أوه، يا له من رعد، هذا ينذر بعاصفة، أنا محظوظ لأني وصلت إلى هنا قبل حلولها، لقد قدمت إلى هنا راجلاً، كنت تقريباً أجري طوال الوقت.

- لكن اسمح لي، إذا كانت الأمور كذلك، كيف تمكَّنت من إيجاد الوقت الكافي للحديث مع ناديجدا فيدويسويفنا، خاصة أنهم لم يستقبلوك؟

- يمكن أن نتحدث من فوق السياج. هل لاحظت الفتاة ذات الشعر الأحمر؟ سأله ضاحكاً. إنها تخدمنا، وماريا نيكيتشنا كذلك. ماذا بك؟ هل خفت من العاصفة؟

- لا، لكنني لست على ما يرام، لست على ما يرام بتاتاً.

فيلتشانينوف يؤلمه صدره بشكل كبير، نهض من الكنبة، وحاول أن يتمشى حول الغرفة.

- في هذه الحالة، أنا أزعجكما. . . لا تقلقا، سأذهب في الحال. ونهض الفتى فجأة.

قال فيلتشانينوف بأدب:

- لا، أنت لا تسبب لنا أي إزعاج، إطلاقاً. إنه لا شيء. . .

- لا شيء كما قال كوبلينكوف، عندما أحسّ بألم في بطنه أتذكر ذلك؟ عند شيتشدرين. أتحب شيتشدرين؟

- نعم.

- أنا أيضاً. . .آه، فاسيلي. . . عفواً. . . بافيل بافيلوفيتش، يجب أن ننهي هذا الأمر، فتوجه لهذا الأخير، وهو يضحك تقريباً، أعيد صياغة السؤال لكي تفهم جيداً: أتقبل أن تعلن غداً لأبويها وبشكل رسمي، وبحضوري، أنك تتراجع عن طلب يد ناديجدا فيدويسويفنا؟

- لا. . . لا أقبل ذلك. . . ونهض فيلتشانينوف غاضباً، معبِّراً عن نفاد صبره. وأرجوك مرة أخرى، أن تتركني بسلام، لأن كل هذا مجرد أمور صبيانية وتفاهات.

وقال الفتى بابتسامة متعالية، وهو يهدده رافعاً سبابته:

- انتبه، حساباتك كلها ستكون خاطئة، أتفهم ما هو ثمن خطأ كهذا؟ أما أنا فأحذرك، أنه بعد عشرة أشهر، عندما تكون قد ضيّعت مصاريف كثيرة، وبعد متاعب كثيرة، ستعود، وستكون أنت مضطراً للتخلي عن ناديجدا فيدويسويفنا. وإذا تخليت عنها ستكون الأمور سيئة بالنسبة إليك، ستصل إذن، إلى هذه النتيجة. وأجد نفسي مضطراً لأقول لك، معذرة عن المقارنة، بأنك تشبه كلباً

ممدّداً فوق كومة تبن، فهو لا يأكله، ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه. أكرِّر لك بصدق، فكِّر في ذلك، وحاول أن تفكر بجدية ولو لمرة واحدة في حياتك.

- ارحمني من موعظتك، أرجوك. صاح بافيل بافيلوفيتش بغضبٍ شديد. أما بخصوص تلميحاتك الدنيئة، فسأتخذ إجراءاتي منذ الغد.

- تلميحاتي الدنيئة؟ عن ماذا تتحدث؟ أنت هو الشخص الدنيء ما دامت لديك مثل هذه الأفكار. أنا أوافق على الانتظار إلى الغد، لكن آه... إنه البرق من جديد، إلى اللقاء... أنا سعيد بمعرفتكما، قالها لفيلتشانينوف ملقياً التحية، ثم ذهب مسرعاً ليسبق العاصفة، ويتفادى المطر.

XV

صفيت الحسابات

- هل رأيت هذا؟ هل رأيت ما فعله؟

قال بافيل بافيلوفيتش، وهو يتجه نحو فيلتشانينوف مباشرة، بعد خروج الفتى.

- نعم، أنت محظوظ. قال فيلتشانينوف دون أن يفكر في ذلك.

لولا الغضب الذي يشعر به جراء الألم المتصاعد بصدره، لما نطق بكلمة. ارتعش بافيل بافيلوفيتش وكأنه أصيب بحريق.

- وأنت؟ أشفقت علي، لهذا لم تشأ إرجاع السوار، أليس كذلك؟

- لم يكن لديّ وقت.

- أنت تشفق عليّ من كل قلبك كصديق حقيقي؟

- نعم، أشفق عليك.

انتاب الغضب فيلتشانينوف، لكنه حكى له باختصار كيف أرجعوا له السوار، وكيف أجبرته ناديجدا فيدويسويفنا تقريباً بالقوة، على الاهتمام بهذه المسألة.

- لا شك أنك تفهمني، لم أشأ أخذ السوار، كان لدي ما يكفي من المشاكل.

ضحك بافيل بافيلوفيتش، وقال:

- لقد سقطت في الفخ، وأخذته.

- ما تقوله مجرد سخافة، وعليك بالاعتذار. لقد أقنعت نفسك منذ قليل بأنني لست أنا الذي يلعب الدور الرئيس في هذه المسألة، هناك آخرون.

- رغم ذلك انجذبت إلى المصيدة.

جلس بافيل بافيلوفيتش، وسكب لنفسه كأس خمر.

- أتتخيل بأنني سأتراجع أمام هذا الطفل؟ سأحطِّمه ككأس، هذا ما سأفعله به، منذ الغد سأذهب إلى هناك، وسأضع حداً لهذه الصبيانيات.

أفرغ كأسه بجرعة واحدة، ثم سكب له آخر، كان يتصرف بلامبالاة غير معهودة.

- أرأيت هذا؟ ناديسكا وسانيشكا، أطفال ظرفاء... ها... ها...

لم يعد يتحكم في غضبه، وفجأة أضاءهم برق ساطع، متبوعاً برعد رهيب، وبدأ المطر في الهطول بغزارة، فنهض فيلتشانينوف وأغلق النافذة.

قال فيلتشانينوف بصعوبة، وهو يتألم:

- أرى أنك ستمكث هنا، أنا سأذهب لأنام. افعل ما يحلو لك.

- في هذا الجو الممطر لا يمكنك أن تطرد حتى كلب.

قال بافيل بافيلوفيتش غاضباً، لكنه كان سعيداً لأنه اكتسب الحق في الغضب.

- إذن، ابقَ هنا، واشرب... اقضِ الليل، هنا. قال فيلتشانينوف بصوت مملّ، ثم تمدَّد فوق الأريكة، وهو يئن في صمت.

- أقضي الليل هنا؟ ألن تخاف؟

- أخاف من ماذا؟ هز فيلتشانينوف رأسه فجأة.

- لا شيء... مجرد كلام عابر... في المرة الأولى، بدا عليك الخوف من شيء ما، أو ظهر الأمر كذلك.

- أنت غبي.

أطلقها فيلتشانينوف، وهو غير قادر على لجم غضبه، ثم التفت حانقاً جهة الحائط.

- أوه... لا بأس. أجاب بافيل بافيلوفيتش.

نام المريض في الحال تقريباً. الضغط المفتعل الذي عاشه طوال اليوم، بدأ يخفّ فجأة. أحسّ أنه أضعف من طفل صغير، خصوصاً أن حالته الصحية كانت متدهورة أصلاً، لكن الألم اشتد، وانتصر على التعب والنوم. بعد ساعة، استيقظ. لقد أجبره الألم على النهوض. توقفت العاصفة، كانت الغرفة مليئة بدخان التبغ، والقنينة فارغة، وبافيل بافيلوفيتش نائم على الأريكة الأخرى، وقد تمدَّد على ظهره، بينما رأسه منقلب، وهو نائم بلباسه وحذائه.

نظارته انزلقت من جيبه، بقيت معلقة بخيطها الحريري، وهي تكاد تلامس الأرض. أما قبعته فقد تدحرجت هي أيضاً. نظر إليه فيلتشانينوف بغضب، لكنه لم يوقظه. كان يمشي في الغرفة وهو مقوّس الظهر، لأنه لم يكن يقوى على التمدُّد. كان يئن ويفكِّر بخوف شديد في ألمه.

كان ذلك يخيفه، وهو خوف له ما يبرِّره. لقد كان عرضة لأزمات صحية منذ مدة طويلة، لكن لم تكن تحدث إلا بشكل متباعد، سنة أو سنتين. كان يعرف أن هذا الألم سببه الكبد، حيث يبدأ بالتواء في المعدة أو أعلاها، ثم بنقطة ما بصدره، بضغط صامت، ضعيف، لكن مؤلم. يتصاعد شيئاً فشيئاً لمدة عشر ساعات، حيث يصل الألم قوة كبيرة، ويصبح الضغط غير محتمل حتى أنه يرى الموت قادماً لا محالة. أثناء الأزمة الأخيرة، سنة من قبل، بعد عشر ساعات من المعاناة، بعد انفراجها، وجد نفسه منهكاً إلى درجة أنه بقي ممدداً على السرير، يحرك بالكاد يده، كما أن الطبيب لم يسمح له ذلك اليوم سوى بتناول بعض الجرعات من الشاي الخفيف، مع قليل من الخبز المبلل في الحساء، وكأنه طفل صغير. كان الألم يبرز دون سبب ظاهر، في الأغلب بعد نرفزة حادة، ويختفي بشكل غريب. يزول الألم في بعض الأحيان وهو في بدايته، في النصف ساعة الأولى بكمادات ساخنة، في أحيان أخرى وهذا ما حدث أثناء الأزمة الأخيرة، لا شيء ينفع حيث لا يتراجع الألم إلا بعد استعمال المقيئات. وقد أقرّ الطبيب فيما بعد بأنه يعتقد أن الأمر ناتج من تسمم.

والآن، بعدما تألم حتى الصباح، لم يشأ فيلتشانينوف المناداة على الطبيب في المساء. زِدْ على ذلك أنه لا يحب الأطباء، لكنه لم يستطع الصمود وبدأ يئن بصوت مرتفع. أفاقت شكواه بافيل بافيلوفيتش الذي انتصب فوق الأريكة وبقي هكذا لبعض الوقت وهو ينصت برعب لتأوهات فيلتشانينوف، بقي ينظر إليه مفزوعاً وهو يجري من غرفة إلى أخرى. يظهر أن القنينة التي أفرغها في جوفه كان لها مفعول فاقَ المألوف، ممّا جعله يستعيد وعيه بشكل بطيء وأخيراً فهم ما يحدث، فاتّجه نحو فيلتشانينوف الذي استطاع بالكاد إجابته، فصرخ بافيل بافيلوفيتش باضطراب شديد:

- أعرف مصدر هذا الألم، إنه الكبد، أنا أعرف ذلك، بيوتر كورميتش بولوسوكين، الذي تعرفه أنت أيضاً، كان يعاني من المرض نفسه، إنه الكبد، عليك بوضع كمادات ساخنة، بيتركورميتش كان يقوم بهذا الأمر دائماً، إنه مرض يمكن أن يؤدي إلى الوفاة، سأنادي على مافرا، أليس كذلك؟

- لا داعي لذلك، لا تفعل، أنا لا أحتاج إلى شيء.

لكن بافيل بافيلوفيتش، والله وحده يعلم لماذا، استشاط غضباً كما لو أن الأمر يتعلق بحياة ابنه. لم يرد قبول أي مبرر، حيث أصر بقوة لكي يقبل فيلتشانينوف استعمال الكمادات وأن يشرب بجرعة واحدة كأسين أو ثلاثة من الشاي الخفيف «ليس ساخناً فقط، بل مغلي»، وأسرع لإيقاظ مافرا، دون انتظار الإذن من فيلتشانينوف، حيث ساعدته على إشعال الموقد بالمطبخ المهجور منذ مدة طويلة، وغلي الماء في السماور، وفي الوقت نفسه مدَّد

المريض، وخلع ملابسه، ثم لفّه في غطاء. عشرين دقيقة بعد ذلك، أحضر السماور والكمادة الأولى.

- إنها أطباق ساخنة، حارقة. قال بنوع من الحماس، وهو يضع فوق صدر فيلتشانينوف طبقاً ساخناً مغلّفاً بفوطة. ليس لدينا حلّ آخر، فالأطباق هي أحسن ما لدينا، أقسم لك بذلك، لقد جربتها شخصياً على بيوتر كورميتش. إنه مرض مميت. اشرب الشاي، ابلعه بسرعة حتى ولو أحرقك، فالحياة تستحق ذلك.

كان يدفع مارفا شبه النائمة، يبدل الصحون على رأس كل دقيقة أو ثلاث دقائق. بعد الصحن الثالث وكأس الشاي الساخن، الذي شربه بجرعة واحدة، أحس فيلتشانينوف بنوع من الراحة.

- إذا استطعنا تكسير الألم والتحكُّم فيه، فستكون علامة جيدة، ونشكر الله على ذلك. صاح بافيل بافيلوفيتش وهو يهرول فرحاً من أجل إحضار صحن آخر وكأس شاي آخر.

- المهم هو تحطيم الألم، المهم هو إيقاف تقدّمه. مكرِّراً كل لحظة بعد نصف ساعة تقريباً، هدأ الألم، لكن المريض شعر بالتعب، حتى أنه رفض استعمال صحن آخر، حيث كان يغلق عينيه من شدة الوهن.

- أريد أن أنام. مكرِّراً بصوت ضعيف.

- هذا أحسن ما يمكن أن تفعله. وافقه بافيل بافيلوفيتش.

- اقضِ الليلة هنا... كم الساعة؟

- تقريباً الثانية إلا ربعاً.

- نَمْ، إذن.

- نعم، سأنام.

بعد دقيقة نادى المريض من جديد، على بافيل بافيلوفيتش:

- أنت... أنت... همس بينما الآخر منحنياً تجاهه، أنت أفضل مني. لقد فهمت كل شيء، فهمت كل شيء... شكراً.

- نَمْ... نَمْ... همس بافيل بافيلوفيتش، وعاد على رؤوس أصابعه إلى أريكته.

نام المريضِ، وسمع صاحبه وهو يرتب سريره بسرعة، ويخلع ملابسه، ويطفئ الشمعة، ويتمدَّد حابساً أنفاسه كي لا يوقظه.

لا شك أن فيلتشانينوف نام في الحال، مباشرة بعد إطفاء الضوء، تذكر ذلك بوضوح فيما بعد.

لكن خلال نومه، وإلى حين استيقاظه، رأى في الحلم أنه لا ينام، رغم وهنه، فهو لا يستطيع النوم. حلم أنه يهذي، وهو مستيقظ، وهو لا يستطيع إخفاء هذه التهيؤات التي تتزاحم حوله، رغم أنه كان يعلم أنها ليست سوى تهيئات. كان يتعرف عليها كلها، غرفته المليئة بالناس، الباب بقي مفتوحاً، الناس يدخلون، ويتزاحمون بالسلم، أمام الطاولة، وسط الغرفة كان هناك رجل جالس تماماً، كما في الحلم الذي رآه منذ شهر، كما في السابق، كان الرجل واضعاً مرفقيه على الطاولة وصامتاً، لكنه كان هذه المرة يرتدي قبعة دائرية مزينة بثوب حداد، «كيف؟ هل في المرة الأخيرة كان الأمر يتعلق أيضاً ببافيل بافيلوفيتش؟»، فكر فيلتشانينوف، لكن وهو ينظر بتأنٍّ أكبر إلى ذلك الرجل، لاحظ أن الأمر يتعلق بشخص آخر، لماذا يحمل إذن، ثوب حداد؟ تساءل

فيلتشانينوف، الناس الذين يتزاحمون حول الطاولة يُحدثون ضجيجاً رهيباً. هذا الحشد كان يبدو غاضباً ضد فيلتشانينوف بشكلٍ أكثر من الحلم الأول، كانوا يهدِّدونه بقبضتهم، ويصرخون بشيء ما، لكنه ليس باستطاعته فهم ما يريدون منه، وفكر: «أنا أهذي، أعرف ذلك، أعلم أني لم أستطع النوم، لأني لا أقدر على البقاء ممدداً، نهضت لأنني كنت أتألم كثيراً».

ورغم ذلك، هؤلاء الناس، صرخاتهم، حركاتهم، كل هذا بدا له واضحاً وواقعياً إلى درجة أن الشكوك تراوده في بعض الأحيان. «هل هي بالفعل هلوسة؟ ماذا يريد إذن، كل هؤلاء الناس؟ يا إلهي... إنها لم تكن هلوسة، ألا يمكن ألّا توقظ هذه الصرخات بافيل بافيلوفيتش؟ إنه هناك، ينام فوق كنبته». وأخيراً حدث شيء شبيه بالحلم الآخر: سارع الجميع نحو السلم، لأن هناك حشداً آخر يصعد ليدخل الغرفة، هؤلاء يحملون شيئاً كبيراً وثقيلاً، حيث تُسمع الخطوات الثقيلة للحمالة، وأصواتهم المتعبة وهم ينادون بعضهم بعضاً في الغرفة، انطلقت صرخات «فلنحمله، فلنحمله». برقت كل الأعين، توجَّهت نحو فيلتشانينوف وهي تهدده منتصرة، وبحركة عنيفة دلوه على السلم. بما أنه لم يعُد له شك بأن هذا لم يكن سوى حقيقة، ارتفع، وقف فوق رؤوس أصابعه، لكي يرى بسرعة ما تحمله الرؤوس، كان قلبه يخفق، يخفق، يخفق، فجأة، تماماً كما وقع في الحلم الآخر، رنّ الجرس ثلاث رنات عنيفة، هذه المرة أيضاً كانت واضحة، واقعية حتى أنها لا يمكن أن تكون حلماً، أطلق صرخة، ثم استيقظ.

لكنه لم يقفز نحو الباب، كما فعل في المرة السابقة. ما هي الفكرة التي حدّدت حركته الأولى، وهل كانت لديه فكرة ما في هذه اللحظة؟ كان الأمر كما لو أن أحدهم همس له بما ينبغي عليه القيام به. انتصب فوق سريره ويداه ممدودتان إلى الأمام، وكأنه يريد أن يدفع عنه هجمة ما، قفز في الاتجاه الذي ينام فيه بافيل بافيلوفيتش، التقت يداه في الحال أيادي أخرى ممدودة فوقه، شدّ عليها بقوة. «إذن، لقد سبقه أحدهم إلى هنا، إنه واقف، منحنٍ عليه»، كانت الستائر مسدلة، لكن الظلام لم يكن شديداً، لأنه من الغرفة الأخرى حيث لا توجد ستائر، كان هناك ضوء خافت. فجأة شعر بألم شديد في أصابع اليد اليمنى، فهم في الحال أنه شدّ بقوة على شفرة سكين أو موسى، في الوقت نفسه سقط شيء ما على الأرض محدثاً ضجيجاً ثقيلاً وحادّاً.

كان فيلتشانينوف أقوى ثلاث مرات من بافيل بافيلوفيتش، لكن صراعهم دام طويلاً، ليس أقل من ثلاث دقائق. في الأخير أطاح به أرضاً، شدّ ذراعيه إلى الوراء، وأراد بإصرار أن يربط اليدين. وبينما هو يقبض القاتل بيده اليُسرى المجروحة، شرع في البحث بالأخرى يميناً ويساراً عن خيط الستار. دام ذلك طويلاً، أخيراً وجده واقتلعه. لقد تفاجئ هو نفسه، بعد ذلك من المجهود الخارق الذي تطلبه منه الأمر. خلال تلك الدقائق الثلاث، لا هو ولا الآخر نطقا بكلمة واحدة. لم يكن يسمع سوى تنفسهما المضغوط، والضجيج الصامت لصراعهما. لما تمكَّن في الأخير من ربط يدي بافيل بافيلوفيتش وراء ظهره، رماه فيلتشانينوف على الأرض، نهض

وفتح الستائر. في الشارع الفارغ، بدا ضوء النهار يلوح. فتح النافذة، وبقي هكذا لبعض الوقت يستنشق الهواء الطري. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة. لما أغلق النوافذ، توجّه بتمهل نحو الدولاب، أخذ منشفة نظيفة، لفّ بها يده وهو يضغط بقوة لإيقاف النزيف، ارتطمت رجله بموسى مفتوحة، أخذها ثم طواها ووضعها بعلبة موجودة منذ الصباح، فوق الطاولة القريبة من الكنبة، التي ينام عليها بافيل بافيلوفيتش، وضع بعد ذلك العلبة في درج مكتبه، حينذاك فقط اقترب من بافيل بافيلوفيتش، وشرع في تفحصه.

في هذه الأثناء، بعد مجهود كبير نجح الآخر في النهوض والجلوس فوق الكرسي. لم يكن يرتدي ملابسه ولا حذاءه، كان قميصه مخضّباً بالدم في ظهره وأكمامه. إنه الدم الذي سال من يد فيلتشانينوف. إنه بالتأكيد بافيل بافيلوفيتش، كان من الممكن عدم التعرف عليه من الوهلة الأولى، لو رأيناه بغتة على هذه الحال حيث إن وجهه كان قد تغير كلياً. كان جالساً وجهه مخضرّ مدمر ويهتز بقوة، يداه مربوطتان وراء ظهره بطريقة تجعله غير قادر على الحركة. كان يرتعش من حين إلى آخر، ألقى على فيلتشانينوف نظرة جامدة كأنه لا يميز بعد بين الأشياء، فجأة، لاحت على وجهه ابتسامة ضائعة، وهو يشير برأسه لإناء الماء الموجود فوق الطاولة، وهمس:

– ماء.

سكب له فيلتشانينوف الماء، ثم سقاه. مد بافيل بافيلوفيتش شارباه بلهفة، بعد أن شرب ثلاث جرعات، رفع رأسه، حملق بتأنٍّ

في فيلتشانينوف الذي كان واقفاً أمامه، والكأس بيده، لكن لم يقُل شيئاً، وواصل الشرب. لما انتهى، تنفس بعمق، أخذ فيلتشانينوف مخدته ثم جمع ملابسه، ذهب إلى الغرفة الأخرى، وهو يغلق الباب بالمفتاح على بافيل بافيلوفيتش.

اختفت الآلام بشكل كلي، لكنه أحس من جديد بالوهن الشديد بعد المجهود الذي قام به، الله يعلم كيف حصل ذلك. حاول أن يفهم ما جرى، لكن أفكاره ما زالت مشتتة، الهزّة كانت قوية. كانت عيناه تنغلق لمدة عشر دقائق، ثم ما يلبث أن يرتعش فجأة، يستيقظ ويتذكر كل شيء، يرفع يده المجروحة، الملفوفة بالفوطة المخضبة بالدم، والتي تؤلمه، ثم يبدأ في التفكير بنوع من النهم المضطرب.

نقطة واحدة هي التي تبدو له واضحة: لقد كان بافيل بافيلوفيتش يريد فعلاً ذبحه، لكن ربع ساعة قبل ذلك لم يكن هو نفسه يعلم أنه سيفعلها. قد تكون علبة الموسى سقطت مساء البارحة تحت نظراته، لكنها لم توقظ لديه أية فكرة، الصورة بقيت عالقة بذهنه (عادة موسى الحلاقة تبقى مقفلاً عليها في درج المكتب، فيلتشانينوف لم يخرجها إلا بالأمس ليزيل بعض الشعيرات الزائدة حول الشارب والأذنين).

«لو قرر منذ مدة أن يقتلني، لهيأ لذلك بشكل قبلي سكيناً أو مسدساً، ولن يأخذ في الحسبان موسى الحلاقة التي لم يسبق له أن رآها، قبل مساء البارحة». كان هذا من بين ما فكر فيه فيلتشانينوف.

دقت الساعة السادسة، استعاد فيلتشانينوف وعيه، ارتدى ملابسه ودخل عند بافيل بافيلوفيتش، وهو يفتح الباب، تساءل لماذا سجن بافيل بافيلوفيتش عوض طرده في الحال. كانت مفاجأته كبيرة فالسجين قد ارتدى ملابسه حيث نجح في فكّ رباطه، وجلس على الكرسي المريح.

وما إن دخل فيلتشانينوف حتى نهض من مكانه، أمسك قبعته وبدت النظرة القلقة التي ألقاها على فيلتشانينوف تقول: «لا تشرع في ذلك، لا يجب أن تتكلم».

- اخرُج، قال فيلتشانينوف، خُذْ علبتك.

عاد بافيل بافيلوفيتش، أخذ العلبة ووضعها في جيبه ثم خرج. تبعه فيلتشانينوف ليقفل الباب من وراءه. تقاطعت نظراتهم لآخر مرة، توقف بافيل بافيلوفيتش فجأة. نظرا إلى بعضهما نظرات مباشرة لآخر مرة وهما يتردّدان. دام هذا خمس ثوانٍ وأخيراً، قام فيلتشانينوف بحركة خفيفة باليد:

- إذن، اذهب. قالها بصوت خافت وأغلق الباب بالمفتاح.

XVI

تحليل

غمرته فرحة عجيبة وبلا حد: شيء ما قد انتهى، شيء ما قد انفرط، الغمّ الفظيع الذي كان يطارده اختفى. هكذا بدت له الأمور. لقد دام الأمر خمسة أسابيع. كان يرفع يده ينظر إلى المنشفة المخضبة بالدم «كل شيء انتهى هذه المرة»، طوال هذا الصباح، لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع لم يفكّر في ليزا تقريباً كأن الدم الذي سال من أصابعه المجروحة، تمكّن من تسوية هذا الجانب أيضاً. لقد أدرك بشكل واضح أنه أفلت من خطر رهيب وفكّر: «هؤلاء الناس الذين، في الدقيقة السابقة، لا يعرفون بعد هل سيقتلون أم لا، ما أن يقبضوا السكين بين أيديهم المرتعدة ويحسّون بالدم الساخن يفور، هؤلاء الناس، لا يكتفون بالقتل، بل يرون أنه من الضروري قطع الرأس بشكل «نهائي» كما يقول المحكومون بالأشغال الشاقة، نعم هكذا هي الأمور».

لم يقدر على البقاء في بيته فخرج، وهو مقتنع بأن عليه القيام بشيء ما فوراً. وإلا فسيحدث له شيء لا يمكنه تفاديه. مشى عبر الطرقات وانتظر. كانت له رغبة شديدة في لقاء أحدهم، في

الحديث لأي كان حتى ولو كان شخصاً مجهولاً، في هذه الأثناء فكَّر في أن يذهب عند طبيب لكي يضمّد يده بشكل سليم. لما فحص الطبيب، الذي يعرفه منذ زمان، الجرح استفسر منه بفضول. «كيف وقع هذا؟» تفادى فيلتشانينوف الجواب وهو يمزح، ضحك بصوت عالٍ وكاد يحكي له كل شيء، لكنه تمالك نفسه، جسّ نبضه ولمّا علم بالأزمة التي انتابته الليلة الماضية أقنعه بأن يتناول في الحال محلولاً مهدّئاً، طمأنه بخصوص أي مضاعفات حرجة: «لن تكون هناك تبعات مقلقة»، ضحك فيلتشانينوف وطمأنه بكون النتائج كانت رائعة جداً. خلال هذا اليوم انتابته رغبة جامحة بأن يحكي كل شيء حتى إنه في إحدى المرات سيحكي لرجل لا يعرفه، التقاه بالمخبزة وكان أول من بدأ الحديث، رغم أنه يكره تجاذب أطراف الحديث مع الغرباء في مكان عام.

دخل مجموعة من المتاجر، اشترى جريدة، ثم ذهب عند خياطه، وطلب منه بذلتين. زيارة أسرة بوجورلتسيف ما زالت تبدو له فكرة سيئة، كان يحاول أن لا يفكر فيها، وفضلاً عن ذلك فهو غير قادر على الذهاب إلى البادية. كان ينتظر حدوث شيء ما هنا في المدينة، تناول عشاءه بشهية كبيرة، تحدث للنادل، لأحد الزبناء، وشرب نصف قنينة من النبيذ. لم يخطر بباله إمكانية عودة الأزمة التي داهمته البارحة، كان مقتنعاً بأنها مرّت، مرت بشكل نهائي في اللحظة التي قفز فيها من السرير وسحق القاتل، ساعة ونصف بعد ذلك نام، وهو متعب جداً.

ورغم ذلك، في المساء أحسّ بدوخة، وبحلول أفكار شبيهة

بتلك التي رآها في حلم البارحة. عاد إلى المنزل مع حلول الظلام، حيث أفزعه شكل الغرفة لمّا دخلها، بدت الشقة حزينة ومخيفة، تجوّل بها عدة مرات، دخل المطبخ لأول مرة.

«هنا كان يسخّن الصحون»، فكر فيلتشانينوف.

أغلق الباب بعناية، وخلافاً للمعتاد، أشعل الشموع مبكراً. وبينما هو يغلق الباب، تذكّر أنه لمّا مرّ أمام مسكن مافرا ناداها وسألها إن كان بافيل بافيلوفيتش قد جاء أثناء غيابه، وكأن الآخر له الجرأة على المجيء، بعد كل الذي جرى.

بعد أن أغلق الباب بإحكام، فتح درج المكتب، أخرج علبة الموسى، تفحّص بتمعن موسى البارحة، وعلى المقبض العاجي الأبيض كانت هناك قطرات دم. أرجع الموسى إلى مكانها وخبأها من جديد في درج مكتبه. كان يرغب في النوم، كان يشعر بأن عليه النوم مباشرة، وإلا «سيكون غير صالح لشيء غداً».

لكن هذا الغد يبدو أنه سيكون يوماً فظيعاً وحاسماً. الأفكار نفسها التي لازمته طوال اليوم، تتزاحم الآن وتهاجم عقله المريض، دون أن تترك له لحظة للراحة، كان يفكِّر، يفكر لمدة طويلة ولم يستطع النوم، «لو سلَّمنا أنه شرع في ذبحي دون سبق إصرار وترصد. هل راودته هذه الفكرة من قبل ولو لمرة واحدة؟ هل حلم بها في لحظة ضعف؟». حسم هذه المسألة بطريقة غريبة شيئاً ما. «نعم، بافيل بافيلوفيتش أراد قتله، لكن فكرة القتل لم تخطر بباله أبداً».

وبصيغة أخرى: «بافيل بافيلوفيتش كان يريد قتله».

كل هذا لا معنى له، فكر فيلتشانينوف، هو لم يأتِ إلى بطرسبرغ من أجل باجاوتوف، ولا من أجل ترقيته، رغم أنه أتى إلى هنا محاولاً أن يجد له مكانة والتقرّب من باجاوتوف، لكن وفاة هذا الأخير جعلته يستشيط غضباً. كان يحتقر باجاوتوف كحثالة، لقد جاء من أجلي أنا إلى بطرسبرغ، حيث رافق «ليزا» منذ ذلك الحين كنت أنتظر شيئاً ما، لكن لم أكن أنتظر منه بأن يذبحني.

«وأنا؟ هل كنت أنتظر منه أن يحاول قتلي؟».

كان جوابه هو أنه بالفعل كان ذلك منتظراً، وبالضبط منذ الدقيقة الأولى التي رآه فيها يتعقّبه بعربته أثناء مراسم دفن باجاوتوف.

«منذ ذلك الحين، كنت أتوقع شيئاً ما، لكن ليس أن يذبحني».

ثم صاح، وهو يهزّ رأسه عن الوسادة: «هل ممكن؟ هل ممكن أن يكون هذا الأحمق جدياً، عندما أكَّد لي أنه يحبني، وعندما كان يضرب صدره، وذقنه يرتعش؟».

قال، وهو يتعمق في تحليله:

«نعم كان جاداً هذا الكازيمودو، كان سخياً وبليداً بما يكفي، ليحبّ عشيق زوجته الذي لم يجد في سلوكه أي عيب لمدة عشرين سنة، خلال تسع سنوات كان يحترمني، ويحفظ ذكراي و«تعابيري». يا إلهي، وأنا الذي لم يكن يشك في شيء، لم يكذب عليّ البارحة، لكن هل كان يحبني عندما صرّح لي البارحة، وهو يقول: «فلنصفّ

حساباتنا»؟ نعم، يحبني، وهو «يكرهني»، وهذا بالفعل أقوى حب، من الممكن، بل أكيد أنني فتنته، سيطرت على مشاعره، لما جاء إلى T. . . وتركت انطباعاً جيداً لديه. هذا ما كان سيحدث بالضبط مع شيلر وقرينه كازيمودو، لقد وضعني في مقام كبير جداً، أكبر مائة مرة من حجمي الطبيعي، لأنني أربكت وحدته الفلسفية، كان من الفضول معرفة ما الذي تتميّز به شخصيتي حتى يحسّ بهذا الإرباك. قد يكون قفازيّ الجديدين وطريقة ارتدائهما. جماعة كازيمودو تحب الجمال. . . آه كم يحبونها، القفازات أكثر من كافية لبعض النفوس الكريمة وخصوصاً بالنسبة إلى «الأزواج الأبديين» أما بالنسبة إلى الباقي فإنهم يبالغون ألف مرة ومستعدّون للعراك من أجلك إذا شئت. وبما أنه يقدِّر وسائل الإغراء، فقد تكون هذه الوسائل بالضبط هي التي سلبته أكثر من أي شيء آخر. وصرخته ذلك اليوم «هو أيضاً. . . إذن، لا يمكننا الثقة في أحد» عندما يصرخ المرء بهذا الشكل فإنه يصبح وحشاً ضارياً.

«جاء إلى هنا «ليقبلني ويبكي» كما عبّر عن ذلك بنفسه، وبشكل بشع، أي إنه أتى إلى بطرسبرغ لكي يذبحني، لكنه كان يتخيل أن ذلك من أجل أن «يقبلني ويبكي» فقط وأحضر ليزا إلى هنا، لكن لو بكيت معه لسامحني، كانت له رغبة عارمة للغفران، لكن ومن اللقاء الأول انقلب كل هذا إلى تكشيرات سكير، وحركات فضة، وإلى أنّات جبانة كأنات امرأة غاضبة (والقرون، القرون التي كان يفخر بها). لهذا السبب بالضبط جاء سكران، حتى يتمكن من إفراغ ما بخاطره ولو بالتكشير».

لو لم يكن سكران لما تكلّم. هل كان يحب التكشيرات والبهلوانيات؟ آه كم كان يحبها، كم كانت فرحته كبيرة عندما تمكَّن من انتزاع القبلات، لكنه لم يكن يعلم إلى ماذا ستنتهي الأمور: هل بقبلات أم بضربات سكين؟ وأخيراً كان من الأحسن أن يقبِّل ثم يطعن، كان هذا هو الحل الطبيعي، نعم فالحياة لا تحبّ الوحوش وتتخلص منهم بحلول طبيعية. أبشع الوحوش هو ذلك الذي يتوافر على أحاسيس نبيلة. أعرف هذا انطلاقاً من تجربتي الشخصية، بافيل بافيلوفيتش، الطبيعة ليست أمّاً للوحوش، لكنها أم شرسة (زوجة أب). الطبيعة تلد وحوشاً وتقضي عليهم. هكذا يجب أن تكون الأمور. القبلات ودموع الصفح لا تليق حتى بالناس الشرفاء في عصرنا هذا: وماذا نقول إذن عنا نحن، بافيل بافيلوفيتش».

«نعم لقد كان غبياً عندما أخذني عند خطيبته. يا إلهي، خطيبة من أجل انبعاث حياة جديدة، بفضل براءة الآنسة زاخلييبنين. فكرة لا يمكن أن تخطر إلّا ببال كازيمودو من هذا النوع. أنت لست مذنباً يا بافيل بافيلوفيتش، لست مذنباً، أنت وحش، كلّ ما فيك إذن يجب أن يكون وحشياً... أحلامك، آمالك، لكن رغم كونه وحش فقد شكّ في حلمه، كان في حاجة إلى عقاب من فيلتشانينوف الشخص المحترم والمقدس، كان في حاجة إلى موافقة فيلتشانينوف، تأكيد فيلتشانينوف بأنّ هذا الحلم لم يكن حلماً وإنما الحقيقة بذاتها، فهو أخذني إلى هناك احتراماً لي، لأنه كان يثق بي وبنبل أحاسيسي. معتمداً ربما، على كوننا سنقبِّل بعضنا هناك وراء الشجيرات ونحن نبكي غير بعيد عن خطيبته الطاهرة. نعم هذا

الزوج الأبدي كان عليه أخيراً، طال الزمن أو قصر، أن يعاقب نفسه بنفسه بصفة نهائية، لكي يعاقب نفسه أخذ الموسى، دون تخطيط لذلك ولكنه أخذه رغم ذلك.

«ورغم ذلك سدَّد له ضربة سكين بحضور الحاكم». هل فكَّر في مسألة من هذا النوع عندما حكى لي تلك القصة بخصوص فتى الشرف؟ هل كانت لديه فكرة معينة، تلك الليلة عندما نهض من فراشه، وبقي واقفاً وسط الغرفة؟ لا، لقد كانت مزحة. نهض لقضاء حاجة، لكن عندما لاحظ بأنني خائف، لم يكلِّمني لمدة عشرة دقائق، إحساسه بأنني خائف كان يمنحه متعة خاصة وقد تكون هذه الفكرة تولَّدت لديه لأول مرة لما رآني واقفاً في الظلمة».

«لكني لو لم أنس تلك الموسى ذلك المساء فوق الطاولة، لما حدث أي شيء. هل هكذا كانت الأمور؟ هل هذه هي حقيقة الأشياء؟ رغم ذلك كان يتجنَّبني، حيث انتظر أسبوعين قبل أن يزورني. كان يختبئ لأنه يشفق عليّ. اختار أولاً باجاوتوف وليس أنا. وهذه الصحون التي كان يسخنها متمنياً أن تصلح له كتمويه. من السكين إلى الحنان... كان يريد إنقاذي وإنقاذ نفسه بواسطة الصحون الساخنة».

ولمدة طويلة بقي عقله المريض يشتغل في الفراغ إلى أن هدأ أخيراً. استيقظ في الغد، برأس مريض، لكنه كان ضحية رعب شديد وغير منتظر.

هذا الرعب الجديد نابع من أمر مؤكّد، متجذر بداخله، بكونه هو فيلتشانينوف، رجل المجتمع الراقي، عليه أن يذهب اليوم،

بمحض إرادته عند بافيل بافيلوفيتش. لماذا؟ ولأية غاية؟ هو لا يعرف شيئاً عن ذلك، كلّ ما يعرفه هو أنه سيذهب. هذه الفكرة المجنونة، لم يكن ليسميها شيئاً آخر، أصبحت كبيرة حتى أنه أعطاها طابعاً عقلانياً ومبرراً شبه معقول: بالأمس كان يتخيَّل بأنه عندما سيعود إلى غرفته سيقفل بافيل بافيلوفيتش على نفسه بالمفتاح بعناية وسيشنق نفسه كما فعل ذلك الصراف الذي تحدثت عنه ماريا سيسويفنا. تحولت هذه الفكرة تدريجياً إلى يقين عبثي، يقين لا يقاوم «لكن لماذا سيشنق نفسه ذلك الغبي؟» قال، وهو يحاول قطع حبل أفكاره، وتذكّر كلمات ليزا ففكر «أنا لو كنت مكانه لربما شنقت نفسي».

وأخيراً، عوض أن يذهب إلى العشاء، توجّه إلى سكن بافيل بافيلوفيتش. «سأطلب رؤية ماريا سيسويفنا فقط» قال لنفسه، لكن ما إن وصل أسفل السلم حتى توقف عند المدخل تحت السقيفة. وصاح ووجهه محمرّ من الخجل: «كيف...؟ كيف.. ؟ هل سأجرّ نفسي إلى هنا لكي أقبّله وأبكي؟ هل من الضروري أن أضيف هذا الانحطاط اللامعقول لكل هذا العار؟».

لكنه أنقذ من هذا «الانحطاط اللامعقول» من طرف العناية الإلهية التي تسهر على جميع الناس المحترمين. ما كاد يخرج إلى الشارع حتى اصطدم بألكسندر لوبوف، كان الفتى متعباً ومضطرباً جداً.

- وأنا أتيت بالضبط إلى عندك، ما رأيك في صديقنا بافيل بافيلوفيتش؟

وهمس فيلتشانينوف بنبرة تائهة.

- هل شنق نفسه؟

- شنق نفسه؟ لماذا؟ قال لوبوف فاتحاً عينيه.

- لا شيء... واصل.

- اللعنة.. يا لها من فكرة غريبة، لِمَ يشنق نفسه؟ بالعكس لقد رحل. لقد وضعته بالقاطرة تخلّصت منه، لكنه يشرب كثيراً لقد أفرغنا ثلاث قنينات، برودوسيلوف يشرب أيضاً بشكل مذهل، كان يغني بالقاطرة، لقد تذكّرك، أشار لنا بيده وطلب منا أن نبلغك السلام، لكنه مجرد وغد ما رأيك؟

كان الفتى ثملاً، وجهه المضاء، عيناه البراقتان ولسانه الثقيل، يشهدون على ذلك بشكلٍ كافٍ. كان فيلتشانينوف يضحك ملء شدقيه.

- أصبحا إخوة وهما يسكران، قبَّل كلّ منهما الآخر وبكيا آهٍ أنتم الشعراء... شيلر

- بلا شتائم أرجوك، أعلم أنه تنازل هناك عن كل شيء، لقد كان هناك بالأمس واليوم حيث وشى بنا فحبسوا ناديجدا بالغرفة الموجودة بالقبو. كانت هناك صرخات وبكاء، لكننا لن نتراجع، لو تعرف كم كان يشرب، كم كانت لهجته سيئة، كان يتحدث عنك باستمرار، لكن هل يمكن أن نقارنه بك؟ أنت رغم ذلك رجل جيد وقد كنت تنتمي بالفعل إلى الطبقة الراقية، أنت مجبر على الابتعاد الآن، بسبب مواردك المالية غير الكافية على ما أعتقد أليس كذلك؟... اللعنة عليه لم أفهمه بتاتاً.

– إذن هو الذي قال لك هذا عني؟

– نعم، هو، لكن لا تغضب، من الأفضل أن يكون الإنسان مواطناً شريفاً على أن ينتمي إلى المجتمع الراقي. أقول هذا لأنه في زماننا هذا، بروسيا، لا نعرف من نحترم، إنها مصيبة هذا الزمن، نحن لا نعرف من نقدر أليس كذلك؟

– صحيح، صحيح، لكن وهو؟

– هو؟ من؟ لماذا يقول دائماً «فيلتشانينوف بلغ من العمر خمسين عاماً، لكنه أفلس» لماذا «لكنه أفلس» وليس «وأفلس»؟ كان يضحك ويكرِّر ذلك ألف مرة. بالمركبة شرع في الغناء ثم البكاء. كان المنظر مقززاً، كان ذلك الرجل الثمل مثيراً للشفقة، أنا لا أحب الأغبياء. وبدأ بعد ذلك في توزيع النقود على الفقراء من أجل روح إليزابيت. هل هي زوجته؟

– ابنته

– ماذا جرى ليدك؟

– جرح، لا شيء.

– أتعرف لقد أحسن عندما رحل. اللعنة عليه... لكن أراهن على أنه بمجرد وصوله إلى هناك سيتزوج. لا تثق به.

– لكن أنت أيضاً تريد أن تتزوج؟

– أنا.. أنا.. شكل آخر. أنت غريب جداً. إذا كان عمرك خمسين عاماً، فهو أقفل الستين. علينا أن نكون منطقيين أيها الأب الصغير. زِدْ على ذلك أنني محبٌّ للسلافيين، كان ذلك في الماضي

أما الآن فالشروق ننتظره من الغرب. . . إلى اللقاء، أنا سعيد بلقائك صدفة، فأنا لا يمكنني أن أدخل، لا داعي للإصرار، لا وقت لدي.

وواصل طريقه، لكنه عاد في الحال:

- آه نسيت؟ لقد كلفني بتسليمك هذه الرسالة. . . لماذا لم تأتِ لمرافقته حتى المحطة؟

صعد فيلتشانينوف إلى بيته وفتح الظرف الذي يحمل اسمه.

لم تكن تحتوي على سطر واحد من بافيل بافيلوفيتش، لكنها كانت تضم رسالة أخرى. لقد تعرّف فيلتشانينوف إلى الخط كان الورق أصفر والمداد شاحباً. لقد كتبت الرسالة منذ عشر سنوات خلت، لكنها لم ترسل إليه وعوضت برسالة أخرى، يبدو ذلك واضحاً من خلال مضمونها. في هذه الرسالة كانت ناتاليا فاسيليفنا تقول له وداعاً إلى الأبد، تماماً كتلك التي تلقاها من قبل والتي تقول له فيها إنها تحب شخصاً آخر أخفت عنه حملها.

وبالعكس فهي لكي تواسيه وعدته بأن تعيد إليه طفلها وتطمئنه بأنه سيكون بينهما التزامات أخرى وهكذا ستصبح صداقتهما أبدية. باختصار كان هناك القليل من المنطق، لكن الهدف كان دائماً نفسه: التخلص من حب فيلتشانينوف. كانت تسمح له بالمجيء إلى T. . . خلال سنة لرؤية الطفلة.

الله وحده يعلم لماذا بعد أن فكرت، عوّضت الرسالة الأخرى بهذه! من خلال قراءة هذه الأسطر، شحب وجه فيلتشانينوف، لكنه تمثّل بافيل بافيلوفيتش وهو يكتشف هذه الرسالة ويقرأها لأول مرة

أمام الصندوق العائلي المصنوع من خشب الأبنوس المرصع باللؤلؤ «هو الآخر قد صار شاحباً كميت، فكر فيلتشانينوف وقد رأى صورته هو نفسه بالمرآة. كان يقرأها ويغلق عينيه على الأرجح ثم يفتحهما على أمل أن تتحول تلك الرسالة إلى ورقة بيضاء ولعله أعاد المسألة عدة مرات».

XVII

الزوج الأبدي

بعد سنتين وخلال يوم صيفي جميل، كان فيلتشانينوف يستقلّ القطار متّجهاً إلى أوديسا للقاء أحد الأصدقاء ومن أجل هدف آخر ليس أقل متعة أيضاً. من طريق هذا الصديق يتمنى أن يلتقي امرأة جميلة كان يريد التعرّف عليها بشكل أكبر.

وخلال هذه السنين، تغير فيلتشانينوف بشكل كبير، لقد اختفت سوداويته دون ترك أثر تقريباً. لم يبقَ له من ذكرياته والاضطرابات الناتجة من حالته المرضية التي كانت قد داهمته ببطرسبرغ منذ سنتين من قبل، خلال قضيته المشؤومة، لم يعُد يحسّ سوى بنوع من الخجل الخفي كلما فكّر في تلك الفترة، كان يعزي نفسه بأن هذا الأمر لن يتكرّر وأن لا أحد سيعرف بذلك أبداً.

وبالفعل لقد تخلى كلياً عن جميع معارفه، أهمل نفسه، وكان الجميع قد لاحظ ذلك، لكنه سرعان ما عاد إلى المجتمع الراقي، مُظهِراً ندمه بنوع من الثقة والتحول حتى أن «الجميع» سامحه على هذا الهجر المؤقت.

حتى أولئك الذين لم يعُد يوجِّه لهم التحية، كان أول من

اعترف به ومدّ له اليد دون أن يطرحوا عليه أسئلة محرجة، كما أنه كان غائباً لأسباب عائلية لا تهمّ أحداً وعاد إلى منزله بشكل عادي. وسبب هذه التحولات المفرحة هو النهاية الإيجابية لقضيته. لقد حصل فيلتشانينوف على ستين ألف روبل وهو مبلغ ليس بالكثير، لكنه شكّل بالنسبة إليه أهمية كبيرة، لأنه أولاً وجد نفسه على أرضية صلبة فهو إذن مرتاح البال، ثانياً كان يعرف أنه لن يبعثر موارده الجديدة: كما فعل في السابق وأخيراً هذا القدر من المال سيكفيه إلى نهاية حياته.

«فلينهر صَرْحهم الاجتماعي، فليصرخوا بآذاننا كما يشاؤون» هكذا كان يفكّر في بعض الأحيان وهو يفحص الأشياء المذهلة التي تحدث حوله في روسيا.

«يمكن للرجال والأفكار أن تتبدل كما يحلو لها، أما أنا فسأكون متأكداً من الحصول على عشاء مثل هذا الذي أتناوله في هذه الأثناء، أما بالنسبة إلى الباقي فأنا مرتاح جداً».

هذه الفكرة اللطيفة إلى حدّ التلذُّذ، سيطرت عليه شيئاً فشيئاً حيث غيّرته ليس معنوياً فقط، بل جسمانياً أيضاً.

لقد أصبح شخصاً آخر، فالمهووس والمضطرب اختفى كلياً وحلَّ محله شخص جديد، مرح، متفتح ورزين. فحتى التجاعيد المقلقة التي برزت حول عينيه وعلى جبينه انمحت تقريباً بشكلٍ كلّي، لون بشرته أصبح أكثر بياضاً وأكثر احمراراً.

كان جالساً بشكل مريح بعربة الدرجة الأولى حيث راودته فكرة ممتعة. كان هناك تفرُّع في اتجاه المحطة القادمة، خط شيد

حديثاً يتجه نحو اليمين: إذا غادرت حالاً الخط المباشر واتجهت نحو اليمين، سأتمكن بعد محطتين من زيارة سيدة عائدة من الخارج، توجد حالياً لوحدها في البادية وهذا شيء إيجابي بالنسبة إلي، لكن غير مريح بالنسبة إليها، يمكنني إذن أن أستغل وقتي هنا بطريقة مفيدة، أحسن ممّا كنت عليه في أوديسا. زيادة على أنه يمكنني التوجه إلى أوديسا فيما بعد «لكنه كان متردداً ولم يقدر على اتخاذ أي قرار: كان في انتظار الصدمة غير المتوقعة والتي ستدفعه إلى الحسم، لكن القطار كان يقترب من الحسم والصدمة لم تأتِ بعد».

دام التوقف بتلك المحطة أربعين دقيقة. كان بإمكان المسافرين أن يتناولوا العشاء هناك. كان هناك جمهور غفير ومستعجل، يتزاحم كالعادة حول مدخل قاعة الانتظار وكالعادة أيضاً، من المحتمل أن تقع مشاجرات. كانت هناك امرأة نزلت من إحدى مركبات الدرجة الثانية، امرأة جميلة جداً ولكنها تلبس بطريقة مثيرة بالنسبة إلى مسافرة عادية، تجرّ تقريباً بكلتا يديها ضابطاً من سلاح الفرسان، شاب جميل يحاول أن يتخلّص منها، كان الضابط الشاب ثملاً للغاية والسيدة التي تبدو أكبر سناً منه، قد تكون إحدى قريباته، تحاول أن تمنعه من الذهاب إلى مطعم المحطة، لكن الضابط اصطدم بتاجر شاب وسط الحشد، هذا الأخير كان هو أيضاً سكران إلى درجة أفقدته صوابه. لقد مكث في المحطة منذ يومين حيث كان يشرب الخمر برفقة مجموعة من أصدقاءه، يبذّر نقوده دون أن يجد الفرصة لاستئناف طريقه.

ووقعت المشاجرة: كان الضابط يصرخ والتاجر يشتم والمرأة تصيح: «ماتينكا. ماتينكا» وبدا ذلك مستفزاً للتاجر حيث كان الجميع يضحك وشعر بالإهانة.

قال وهو يقلِّد صوت المرأة الحاد للسيدة:

- انظروا... ماذا ماتينكا؟ ألا تخجل من نفسك أمام الجميع؟

اقترب متعثراً من المرأة التي جلست فوق الكرسي وأجلست قربها الضابط الشاب، فنظر إليهما باحتقار وقال بصوت ثقيل:

- أنت مجرد مومس، مومس.

أطلقت المرأة صرخة مدوية، نظرت حولها مرعوبة باحثة عن النجدة وزيادة في المصيبة قفز الضابط من مكانه وهو يرعد متظاهراً بالهجوم على التاجر، لكنه عاد من جديد ليتهاوى فوق كرسيه. تصاعدت الضحكات من كل جانب ولا أحد كان يرغب في التدخل. وكان المنقذ هو فيلتشانينوف الذي أمسك التاجر من رقبته، ثم رمى به بعيداً عن السيدة المرعوبة... هذا ما وضع حدّاً لهذا الشجار، فالتاجر الشاب أفزعته الرجّة وكذلك قامة فيلتشانينوف، فترك أصدقاءه يبعدونه. المظهر المهيب لهذا السيد ذو اللباس الأنيق، كان له أثر كبير على الحاضرين الذين توقفوا عن الضحك. وشرعت المرأة والدموع في عينيها، تعبِّر له عن امتنانها العميق بتدفق كبير وكان الضابط يتمتم «شكراً... شكراً». وأراد أن يمدّ يده لفيلتشانينوف، لكنه غيّر رأيه وتمدّد فوق الكرسي.

وقالت له المرأة بنبرة عتاب وهي تضم يديها:

- ماتينكا

كان فيلتشانينوف فرحاً بهذه المغامرة وبظروف تدخله، إن هذه المرأة تهمّه فهي بالطبع بدوية غنية، ترتدي ملابس باهظة الثمن، لكنها بلا ذوق، تصرفاتها سخيفة نوعاً ما، فهي تجمع كل الشروط التي يمكن أن تضمن النجاح لمغرور قادم من العاصمة ومهتم بالنساء. فتحدثا إلى بعضهما: السيدة تكلمت بحرارة واشتكت من زوجها الذي اختفى فجأة من العربة وهو ما تسبَّب لها في كل هذا «لأنه يختفي دائماً بالضبط في الوقت الذي نحتاج إليه».

- ذهب ليقضي... تمتم الضابط

- ماتينكا، قالت وهي تترجاه.

«مسكين هذا الزوج» فكر فيلتشانينوف.

- ما اسمه؟ سأذهب للبحث عنه.

- ب..ل..باليتنش.. قال الضابط

- زوجك يسمى بافيل بافيلوفيتش؟ سألها فيلتشانينوف بفضول.

وفجأة، اندس الرأس الأصلع الذي يعرفه جيداً بينه وبين المرأة وفي لحظة تراءت له حديقة أسرة زاخليبينين والألعاب البريئة والرأس الصلعاء التي تحول باستمرار بينه وبين ناديجدا فيدويسويفنا.

- آه ها أنت أخيراً.

إنه بافيل بافيلوفيتش نفسه، كان ينظر لفيلتشانينوف حيث صعق وكأنه رأى شبحاً. ذهوله كان كبيراً حتى أنه لم يسمع اللوم العنيف

الذي كانت توجِّهه له زوجته، بثرثرة شديدة.

- نعم، إنه خطؤك وهذا السيد كان بالنسبة إلينا الملاك المنقذ، أنت تغيب دائماً عندما نحتاجك.

قال للسيدة التي بقيت متعجبة جداً وهو يضع يده اليمنى فوق كتف بافيل بافيلوفيتش بحميمية ظاهرة:

- نحن أصدقاء قدامى، أصدقاء طفولة، ألم يسبق له أن حدَّثك عن فيلتشانينوف؟

- لا أبداً. قالت السيدة بعد برهة تفكير.

- هيا قدِّمني لزوجتك أيها الصديق الخائن.

- إنه السيد فيلتشانينوف... ليبوشكا... هذا كل شيء...

قال ذلك وارتبك أمام زوجته فاحمرّت ورمته بنظرة غاضبة، بالطبع لأنه ناداها بليبوشكا.

- تصوري، لم يخبرني بأنه سيتزوج، لم يدعُني لحفل الزواج، لكن أنت يا أولمبيادا...

- سميونوفا.. همس بافيل بافيلوفيتش

- سميونوفا... تدخل فجأة الضابط الذي كان نائماً.

- سامحيه أولمبيادا سميونوفا، سامحيه على شرف لقائنا إنه زوج ممتاز.

وضرب فيلتشانينوف على كتف بافيل بافيلوفيتش، كتعبير عن الصداقة.

- عزيزتي لقد ابتعدت لفترة قصيرة. قال بافيل بافيلوفيتش، محاولاً تبرير غيابه.

فقاطعته ليبوشكا:

- وتركتهم يشتمون زوجتك، عندما احتجتك لم أجدك.

- أنت في المكان الذي لا نحتاجك فيه، أنت في المكان الغلط. قال الضابط الشاب.

كانت ليبوشكا تختنق تقريباً من شدة الغضب. كانت تفهم بنفسها أن هذا سلوك غير لائق أمام فيلتشانينوف، كانت تحمر خجلاً، لكنها لا تستطيع التحكّم في أعصابها وقالت:

- أنت حذر جداً حيث لا ينبغي الحذر.

ماتينكا قال بدوره:

- تحت السرير... يبحث عن العشاق... تحت السرير حيث لا ينبغي... حيث لا يجب.

لكن لا أحد ينتبه إلى ماتينكا.

كل شيء صار على ما يرام. تعرفوا على بعضهم أكثر. فذهب بافيل بافيلوفيتش لإحضار قهوة وحساء. ثم شرحت أولمبيا سميونوفا لفيلتشانينوف بأنهم جاؤوا من O... حيث يعمل زوجها وأنهم ذاهبون الآن لقضاء شهرين بالبادية على بعد فرسخين من المحطة وأنهم يملكون هناك منزلاً جميلاً وحديقة حيث ينتظرون العديد من المدعوين، زِدْ على ذلك أن لديهم كثيراً من الجيران وأن ألكسي إيفانوفيتش، إذا تفضل بزيارتهم «في عزلتهم» ستستقبله «كملاكها المنقذ» لأنها لم تعُد تقدر أن تتذكر، دون رعب، ما كان سيحدث لولا... باختصار ستستقبله «كملاكها المنقذ».

- منقذ... منقذ. كرّر الضابط بحرارة.

شكرها فيلتشانينوف بأدب وأجاب بأن ذلك يشرِّفه وأنه رجل بلا مشاغل وأن دعوة أولمبيا سميونوفا تغريه بلا حدود. بعد ذلك بدأ حديثاً مرحاً، نجح خلاله في تمرير عبارات الثناء مرتين أو ثلاث فاحمرّت ليبوشكا من شدّة اللذة وما إن عاد بافيل بافيلوفيتش حتى أعلنت له بفرح أن ألكسي إيفانوفيتش قبل بأريحية أن يقضي معهم شهراً بالبادية ووعدهم بأن يلتحق بهم بعد أسبوع. ضحك بافيل بافيلوفيتش بخيبة أمل، لم ينطق بكلمة أمّا أولمبيا سميونوفا فهزت كتفيها الجميلتين ورفعت عينيها إلى السماء. افترقا أخيراً حيث سمعت من جديد تعابير الإثراء ومن جديد «الملاك المنقذ» «ماتينكا». . . رافق بافيل بافيلوفيتش زوجته والضابط الشاب إلى المقصورة، أما فيلتشانينوف فأشعل سيجارة وبدأ يمشي جيئة وذهاباً. كان يعلم أن بافيل بافيلوفيتش سيلتحق به، ليتبادل معه بعض الكلمات قبل انطلاق القطار، هذا ما حصل بالفعل.

ظهر بافيل بافيلوفيتش حيث كانت تقاسيم وجهه وعينيه تعبِّران عن سؤال محير. شرع فيلتشانينوف في الضحك، أمسكه ودياً من مرفقه وجذبه نحو الكرسي المجاور، جلس ثم أجلسه، بقي صامتاً حيث كان يريد من بافيل بافيلوفيتش أن يبدأ الحديث. فمرّ مباشرة إلى الموضوع وقال:

- هكذا إذن ستأتي عندنا.

- كنت أعلم ذلك، لم يتغير بتاتاً.

انفجر فيلتشانينوف ضاحكاً، وضربه من جديد على كتفه وأضاف:

- لكن أنت بنفسك، أكنت قادراً على الاعتقاد ولو للحظة، أنني سأكون ضيفك لمدة شهر كامل؟

كاد بافيل بافيلوفيتش أن يطير من الفرح:

- إذن لن تأتِ.. صرخ وهو غير قادر على إخفاء فرحته

- لا لن آتي. لن آتي... وصدرت عن فيلتشانينوف ضحكة رضا، إضافة إلى كونه لا يعرف لماذا يبدو له الموقف مضحكاً، لكن كلما فكَّر في ذلك، بدا له الأمر مسلياً.

- صحيح؟ أأنت جاد فيما تقول؟ بعد قوله لهذه الكلمات أصبح بافيل بافيلوفيتش فريسة لانتظار محموم.

- لقد قلت لك ذلك سابقاً، فأنا لن أجيء، يا لك من رجل غريب.

- إذا كانت الأمور هكذا، ماذا سأقول لأولمبيا سميونوفا التي ستكون في انتظارك؟

- يا للعجب. قل لها إني أصبت بكسر في ساقي أو شيئاً من هذا القبيل.

- إنها لن تصدقني. قال بافيل بافيلوفيتش بصوت شاكّ. ثم قال فيلتشانينوف ضاحكاً:

- هل ستوبخك؟ لاحظت يا عزيزي أنك ترتعد خوفاً من زوجتك الجميلة.

حاول بافيل بافيلوفيتش أن يبتسم، لكنه لم ينجح في ذلك، أن يرفض فيلتشانينوف زيارته، فهذا جيد، لكن أن يسمح لنفسه بالتحدث عن السيدة تروسوتسكي بهذه النبرة الساخرة، فذلك غير

لطيف بالمرة. اكفهرّ وجه بافيل بافيلوفيتش وهو ما لاحظه فيلتشانينوف. وفي غضون ذلك، سمع صفير القطار للمرة الثانية. ومن بعيد سمع صوتاً حاداً ينادي بافيل بافيلوفيتش. اضطرب هذا الأخير، لكنه لم يجب عن النداء بعد. بطبيعة الحال فهو كان ينتظر من فيلتشانينوف أن يَعِدَه بعدم المجيء، لآخر مرة.

– ما الاسم الأول لزوجتك؟ سأله فيلتشانينوف وكأنه لم يلاحظ القلق الذي انتاب بافيل بافيلوفيتش.

– إنها ابنة قسّ كبير... أجابه بافيل بافيلوفيتش، وهو يسترق السمع، وينظر إلى المقصورة بقلق.

– آه فهمت... تزوجتها لجمالها

ظهرت على وجهه علامات الاستياء من جديد.

– ومن هو ماتينكا؟

– لا شيء... شخص من العائلة... من عائلتي أنا... ابن المرحومة ابنة عمي كولوبتشيكوف، لقد أرغموه على مغادرة الجيش بسبب شيء ما والآن قد أعادوه إلى الخدمة... نحن الذين اشترينا له كل شيء... المسكين... إنه غير محظوظ.

«الأمر كذلك كل شي على ما يرام»، فكر فيلتشانينوف

– بافيل بافيلوفيتش. قال من جديد الصوت القادم من العربة، لكن هذه المرة بنبرة أكثر قلقاً.

– بال. .ليتش. . كرّر صوت مخمور

اضطرب بافيل بافيلوفيتش من جديد، لكن فيلتشانينوف شدّه من مرفقه بقوة وأوقفه.

– أتريد أن أذهب في الحال وأحكي لزوجتك، كيف حاولت ذبحي؟ ما رأيك؟

– كيف؟ أتفكر في ذلك؟ صرخ بافيل بافيلوفيتش مفزوعاً. الله يحفظك.

– بافيل بافيلوفيتش... بافيل بافيلوفيتش... صرخت الأصوات من جديد

– إذن هيا اذهب.

وترك فيلتشانينوف أخيراً وهو يضحك من قلبه.

– لن تأتي إذن؟ تمتم بافيل بافيلوفيتش لآخر مرة وهو فاقد الأمل حيث قام بحركة رجاء، كما كان يفعل في السابق.

– أقسم لك، اجرِ إذن، وإلا ستحدث مصيبة.

ومد له يده بودّ، ارتعش، لم يمسك بافيل بافيلوفيتش تلك اليد وسحب يده.

أعطيت إشارة الانطلاق الأخيرة.

وفي لحظة حدث تغير مفاجئ، الاثنان معاً بدا عليهما تحول ما. شيء ما اهتزّ وانكسر عند فيلتشانينوف الذي، منذ دقيقة خلت، كان يضحك بفرح. شدّ بافيل بافيلوفيتش بعنف من كتفه.

– إذا أنا.. أنا مددت لك هذه اليد، وأراه اليد اليسرى حيث يظهر له أثر الجرح العريض، يمكنك أن تصافحها. همس وشفاهه الشاحبة ترتعش.

بدا بافيل بافيلوفيتش شاحباً هو الآخر، اهتزت شفتاه، وظهرت اضطرابات خفيفة على وجهه، وتمتم:

- وليزا، إذن؟

وفجأة، اهتزت شفتاه وذقنه، وتدفقت الدموع من عينيه.

وبقي فيلتشانينوف مشدوهاً واقفاً أمامه.

- بافيل بافيلوفيتش. بافيل بافيلوفيتش.

جاء الصراخ من العربة، وكأن هناك شخصاً ينحر.

انطلقت الصفارة.

استعاد بافيل بافيلوفيتش وعيه، قام بحركة يائسة ثم أطلق ساقيه للريح، انطلق القطار، لكنه استطاع أن يلحق به حيث تمكن من الإمساك بالباب والقفز داخل العربة. ظلّ فيلتشانينوف هناك حتى المساء، واستقل القطار التالي ذا الخط المباشر. لم يذهب في اتجاه اليمين، لم يذهب لرؤية المرأة التي تسكن لوحدها في البادية، لم يكن له مزاج، لكن كم ندم على ذلك فيما بعد.

تعتبر رواية **الزوج الأبدي** رواية النضج لدوستويفسكي، إذ كتبها وهو في سن الخمسين تقريباً. إنها قصة مدهشة وممتعة تتحدث عن مواجهة بين فيلتشانينوف، الرجل الجذاب، وبافيل بافيلوفيتش، زوج عشيقة فيلتشانينوف السابقة.

يدخل بافيل بافيلوفيتش عالم فيلتشانينوف ويخبره أن زوجته ماتت منذ تسع سنوات. الزوجة ماتت، لكن الزوج لا يستطيع أن يتخلص من الافتتان الذي يشعر به حيال حبيب زوجته السابقة، افتتان لا يمنعه من أن يلعب معه لعبة القط والفأر، فيخبره عن وجود ابنة ولدت بعد فترة قصيرة من رحيله، وسرعان ما نفهم أن هذه الابنة هي من صلبه.

من هذه المواجهة بين الرجلين تولد حبكة من العلاقات الغريبة والمؤثرة، إذ يستند جزء كبير من الرواية إلى هذا التوتر بين العشيق السابق والزوج الأرمل: هل كان الزوج المخدوع على علم بالعلاقة؟ وما الذي يرسمه بالضبط؟ وليزا ابنة من منهما؟

في هذه الرواية المبنية على علاقات الحب والكراهية المتناقضة، نجد بعض الثيمات المحببة لدى دوستويفسكي، كالخلاص والنفاق الاجتماعي وتصوير الأخلاق الاجتماعية الروسية في تلك الحقبة، كما نجد فيها أيضاً هذه الشخصيات الشغوفة التي تضفي على روايات دوستويفسكي جاذبية خاصة.

لوحة الغلاف لبيكاسو

ISBN 978-9953-68-693-6
9 789953 686936

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com